كِتَاب التَّفسير

للإمَام محَمّد بن
القاسم بن إبرَاهيم عليه السَّلام

مُنتزع من مَجْموع كتبه ورسَائِله

تحقِيق :عبد الكريم أحمد جدبان

منشورات مكتبة التراث الإسلامي تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م

كتاب التفسير

كتاب التفسير

(من سورة الحجر)

قوله عز وجل: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا - والله اعلم - عند ما يرى الكافرون من نصر الله لنبيه وللمؤمنين، وإظهاره له على أعدائه وتمكين ما جاء به من الدين، فربما ودوا وتمنوا حينئذ أن يكونوا مسلمين، ثم تأباهم غوايتهم وشقاوتهم، إلا اتباع ما جرى من الضلال عليه آباؤهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الأيكة اسم من أسماء الشجر، إذا عظمت الشجرة فجازت إلى الغاية من العظم التي هي في الكبر النهاية، فقيل لها: الأيكة، فيشبه - والله أعلم - أن تكون هذه الأيكة من الشجر، كان يعبدها قوم شعيب صلى الله عليه، كما يعبدون الأصنام التي ينحتون من الشجر، وقد قال بعض المفسرين: إن الأيكة اسم القرية التي كانوا يسكنون.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: تأويل هذه الآية في أولها وهو الشاهد على آخرها، قوله سبحانه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وهي القرية التي عصى الله أهلها، وكذبوا نبيه، فأمطر الله

عليهم حجارة من سجيل كما ذكر، فأهلكهم بها وطحنت الحجارة دورهم، وغيَّرت ما كان من حالهم، ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. فأخبر أن ما كان من فعله عز وجل بهم وإمطاره الحجارة عليهم آيات المتوسمين، والمتوسمون: فهم ذوو العقول والفكر والتمييز، لأن العرب تسمي المتوسَّم ما تُفكر فيه وتُبين وعُرف، فتقول: توسمت فيه الخير، وتقول: توسمت فيه الشر، فقال عز وجل إن فيما فعلت بهؤلاء المبطلين لآيات لمن عقل وفكر وميز من المتوسمين الناظرين، ثم قال: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾. والسبيل: فهو الطريق وهي قرية على طريق الشام، يختلف الناس عليها من الشام إلى الحرمين، ويرون فيها من آثار عقوبة الله سبحانه وما نزل بها من الخراب والدمار.

فحذر الله سبحانه مشركي قريش مَن قد رأى تلك الدار واختلف عليها، ما نزل بأهل البلد وبها عند عصياهم الله سبحانه.

ثم قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. معنى ﴿ ءَايَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾، أي: عبرة وتحذيراً للمؤمنين، لأن أهل الإيمان لهم قلوب خاشعة، ونفوس إلى الله مقبلة، فذكر الله عز وجل أنهم يعتبرون بها، ويتفكرون فيما نزل بأهلها.

(ومن سورة النحل)

قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا ومثله وما كان نظيراً له من جحد الظالمين المستبينين لظلمهم، وإساءتهم في الدنيا، عند معاينة الملائكة ووفاتهم وفي الآخرة، إنما هو عند عظيم ما يعاينون وحل بهم ويطلعون عليه، مما أعد الله من العقوبة لهم، فيطيش منهم عند ذلك الروع والأحلام، ويختلط

عند الفزع منهم العقول، فيخلطون في الكلام، ويجحدون الاساءة لما يعاينه المسيء من النكال ويراه، كما يجحد المملوك من الآدميين في دار الدنيا عظيم ذنبه، لما يخاف ويحل من كبير العقوبة، وإن لم ينفعه الجحد، روعا وفزعا واختلاطاً، لعظيم ما يعاين وانقطاعا.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السبت يوم موسى صلى الله عليه، الذي أمر أمته بإعظامه وترك الأعمال فيه.

وقد ذكرت اليهود: أن في التوراة أن الله خلق الخلائق كلها في الأيام الستة، أولها الأحد وآخرها الجمعة، وأن يوم السبت كان يوماً خالياً من أن يكون الله صنع فيه خلقا، فقدسه إذ خلقه يوماً مفرداً بعد كمال ما خلق من خليقته، وأحدث هذا اليوم بعد كمال ما أظهر في غيره من حكمته، وجعله يوماً مقدساً تأول فيه، قالوا لأنه كان يوم فراغ.

فإن يكن في التوراة على ما ذكروا، فهو مثلٌ نُبهوا به وعُبِّروا، ليعلموا أن الله قد أتم ما أراد من خلقه في الستة أيام، أخبرنا على لسان النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] في القرءان فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]. لأنه لما خلق في الستة الأيام التي قبل السبت ما خلق، وكان يوماً فرغت فيه القدرة من تمام جميع الخلق، وتأصّل الأقوات، وتقدير ما يتوالد من متناسل ذلك بعضه عن بعض، فيما بين السموات والأرض، إلى يوم القيامة والميقات، كان السبت خالياً، واسمه يدل أنه من خلقِ جميعِ الأشياء خلوٌ خالياً.

ولذلك قيل للجلود التي لا شعر عليها: سبيته، وسميت الجمعة بهذا الاسم لأنها كانت آخر الأيام الستة التي جمعت جميع ما بقي من الخليقة، وهي آخر الأيام، ويقال: إن الساعة – والله أعلم – فيها تقام.

وجعل الله السبت يوما أمر موسى عليه السلام بتعظيمه، وأن يكون يوم راحة لكل مشتغل من أمته من عمله، ليذكروا بذلك عجيب ما أخبرهم الله عنه من تمام الخلق في الستة الأيام من قبل كونه، وإنما أمر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم - والله أعلم - للجمعة بالتبجيل والإعظام، لأنه خاتم النبيين والجمعة خاتمة الأيام.

قوله عز وجل: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معنى ذلك: أنه يوقع اسم الضلال عليه وينسبه إليه ويدعوه به، فلما أن كان ذلك جاز، أن يقول عز وجل: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾. أي: بإيقاع اسم الضلال عليهم، فلما أن استوجبوا بفعلهم سماهم ضالين، وهذا موجود في لغة العرب، إذا قال رجل لرجل: يا ضال، قال: فلان ضلّلني، ويقول السامع: فلان ضلل فلاناً، و لم يضلله عن منهج ولا عن حجة، وإنما سماه: ضالاً، فلما أن سماه ضالاً قال: ضلله، فعلى هذا يخرج معنى قوله سبحانه: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾. أي: يوقع أمر الضلال على من يستأهل ذلك بفعله، ويستوجبه بجرمه.

ولو كان الله عز وجل كما يقول الظالمون، ليقضي عليهم بالمعاصي قضاء حتم، ويقضي عليهم بالطاعة قضاء حتم، كما قضى عليهم بالخلق، فجعل منهم أسود وأبيض وأسمر وأصفر، وطويلاً وقصيراً، ما ذمهم على معاصيهم، ولا عاقبهم على فعلهم، ولا حمدهم على إحسانهم ولا على طاعتهم، إذ كان ذلك منه قضاء، كما لم يحمدهم و لم يعاقبهم على بياضهم وسوادهم واختلاف ألوانهم، إذ ليس لهم فعل يذمون عليه، ولا يحمدون فيه، لأن المحمود مُدخَل في فعله، غير مخيَّر في نفسه، ولكن جعلهم سبحانه مخيرين في الطاعة والمعصية، ممكنين في الاستطاعة، وأبان لهم طريق النجاة، وأبان لهم طريق الهلكة، ثم قال: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢]. فعاقبهم على اختيارهم للمعصية، وأثابهم على اختيارهم للطاعة.

والشاهد على ما قلنا من تخييره لهم، وتركيبه الاستطاعة فيهم، وأنهم غير مضطرين ولا مقهورين، قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧]. فأخبر سبحانه أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فلو كانوا مجبورين مقضياً عليهم ما استحبوا شيئا، ولا قدروا من بعد أن هداهم يستحبوا العمى، هذا كتاب الله عز وجل ينطق بخلاف ما قالت المجبرة، ومن ذلك ما قالت الجاهلية به مثل قول المجبرة، فَسيَّبوا وبَحرُوا وحَمُوا .(١)

وكان هذا فعلهم في إبلهم وغنمهم، فإذا كان منهم رجل غائباً، نذر إن رده الله أن يسَيِّب بعض إبله، وكذلك في الحام إذا ضرب في إبلهم الجمل حتى يضرب معه أولاد أولاده، خلّوه وقالوا: قد حمى ظهره.

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أمرهم أن يأخذوا إبلهم وغنمهم التي قد أرسلوها، وكانت قد أضرت بالناس، تشرب مياههم وتكثر ضرهم، فقالوا: يا محمد إن هذا أمرٌ أمرنا الله به وقضاه علينا، فلا نستحل أخذها، فأكذبهم الله عز وجل فيما قالوا عليه، فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣]. فلو كانت أفعال العباد بقضاء من الله عز وجل كما يقول الجاهل ما أكذبهم الله فيما ادعوه عليه، ولكنهم مخيرون في أفعالهم غير مجبورين على أعمالهم، فسبحان من لا يظلم العباد!! ولا يقضي عليهم أبداً بفساد!!

---

(١)) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾.

وقد يكون أيضاً من الضلال الخذلان، على ما يكون منهم من الجرأة والعصيان، فإذا كانوا كذلك وقع عليهم اسم الضلال ولزمهم الخذلان، وليس هو سبحانه يجبرهم على معصية، ولا يخرجهم من طاعة، ولو كان ذلك كذلك، لكان فعلَه لا فعلَهم، وكانت إرادتَه لا إرادتَهم، و لم يكن لهم في ذلك ذنب فيذمون عليه، ولا عمل فيعاقبون فيه، عز عن ذلك ذو العزة والسلطان، بل هو بريء من أفعال العباد، متعال عن الظلم والفساد.

وكيف يقدر أحد أن ينسب معاصي العباد إلى الله سبحانه، وهو يقول في كتابه: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨]. فلو كان التنزيل من الله عز وجل بقضاء عليهم ما نسبه إليهم، ولا قال: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾، فلما أن كان الفعل لهم، ذكرهم الله به ونسبهم إليه، وفي ذلك ما يقول سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣]. فكان بُدُوُّ النعم والإفضال من الله عليهم، وكان التغيير منهم لا منه، فذكر عز وجل تغييرهم لما أنعم الله عليهم به، ولو كان منه لنسبه إلى نفسه، وما ذمهم على فعله، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٨].

أفيقول الكذاب: لَوَوا ألسنتهم به وقضى عليهم بالكذب عليه، فإن قال بذلك قائل كان من الظالمين، ولعذاب الله من المستوجبين، لأن الله سبحانه ينفيه عن نفسه، وينسبه إليهم، والله يقول الحق، ويأمر بالصدق، ويذم على الكذب، ويقول عز وجل: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ

﴿ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء:١١٢]. فهذا قوله للمخلوقين، وذمه لهم على رميهم بخطاياهم المسلمين، فكيف يجوز على رب العالمين أن يقضي على خلقه بقضاء، وينزل فيهم أمره وما يشاء، ثم ينسبه إليهم، ويحيله عليهم، ويعذبهم عليه ويذمهم أشد الذم.

ومن ذلك ما يقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ [يونس:٥٩]. فقال: جعلتم منه حراماً وحلالاً، فلو لا أن لهم فعلاً قد تعدَّوا فيه ما قال: جعلتم، ولقال: خلقت، وما قال عز وجل: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾. فأخبر تبارك وتعالى بافترائهم عليه، ومخالفتهم له، فكيف يجوز لأحد من المسلمين أن ينسب إلى الله أفعال الظالمين، فهو سبحانه يبرئ نفسه من ذلك في كتابه المستبين، فما يقول بذلك إلا من كانت حاله كما قال الله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥].

ولعمري إن من اتبع المتشابه وخلا المحكم لكَمَا قال الله سبحانه: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران:٧]. وإن من تعلّق بآية متشابهة ثم فسرها بجهله، وقاسها بعقله، لبعيد الصواب، ناء عن الحق والجواب، يخبط أبداً في عشواء مظلمة، ويُحكّم الآيات المتشابهات على الأمهات المحكمات، ولقد أخبر الله عنهم، وعن ما يكون من فعلهم، فقال: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾. والفتنة فهي: إهلاك المسلمين وتضليلهم، وتحييرهم عن الحق، فعابهم الله سبحانه بذلك.

الكتاب فإنما هو نور وبيان، وهدى وبرهان، يهدي به الله من الحيرة، وينقذ به من الهلكة، وليس من آية متشابهة إلا وفي كتاب الله تحتها آيات كثيرة محكمات، ولها مفسرات، فأغفلوا المحكم، وطلبوا المتشابه، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]. فأخبر سبحانه أن له مترجمين، وبغامضه عالمين، ولحكمه مصيبين، وسنفسر كل ما ذكر من المتشابه بحجج بينة، وجلاية نيرة، ونكتب تحت هذه الآية المتشابهة خمسا وستا من كتاب الله يشهدن على قولنا، ويحكمن بالصدق لنا، ومن حكمن له الكتاب فهو المصيب في فعله، المحمود في قصده، ولو كان أفعال العباد بقضاء من الله سبحانه وقدر، كما يقول الجاهل، ثم عاقبهم عليه لكان ظالماً لهم، متعدياً عليهم، إذ لا حيلة لهم في قضائه، ولا مَصَدَّ لهم عن مشيئته، ونعوذ بالله أن نقول ذلك في ربنا، أو ننسبه إلى خالقنا، إنا إذا لمن الجاهلين.

وكيف يقول بهذه المقالة عاقل فطن، أو عارف بالله موقن، والله سبحانه يكذبهم في كتابه حين يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٦-٨]. فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾، فلو كان قضاءه عليهم ما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، لأنه لا عمل لهم، ولا سبيل إلى شيء إذا قضى عليهم، فدل سبحانه بأنهم مفوضون لا مجبرون، ثم قال: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف:٤٩]. ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف:٧٢]. فأخبر سبحانه أنهم أُورثوها وأُعطوها بأعمالهم، وحسن طاعتهم، ولو كانوا مجبورين ما جعل لهم أعمالاً، إذ العمل لهم لا لغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣]. ولو كانوا مجبورين ما سُئلوا ولا نُسب العمل إليهم، كما لم ينسب خلقهم فيما جعل الله من رزقهم إليهم.

ثم قال: ﴿أَلَمْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝﴾ [الجاثية:٣١]. فأخبر أنهم استكبروا وعملوا وكانوا بفعلهم مجرمين، ولعذابه من المستوجبين، ثم قال سبحانه للكافر الظالم الكذاب عند قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الزمر:٥٧]. فأكذبه الله في قوله، فقال: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ۝﴾ [الزمر:٥٩]. أفيجوز لأحد من المؤمنين، أو مَن عرف الله من الموحدين، أن يقول إن هذا الكافر الذي قال: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الزمر:٥٧]. إذ قضاء عليه بالكفر والله سبحانه يكذبه في ذلك ويلومه فيه، ويعذبه عليه.

فإن قال بهذا قائل فقد أكذب كتاب الله، وعاند الله سبحانه، وإن قال: إن الكافر كذب في قوله، واجترأ في فعله، فقد رجع إلى الحق والصواب، ثم قال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]. فذلك يدلك أنهم مخيرون، ومن الاستطاعة مَمَكَّنون، ودل أن من عمل صالحاً لنفسه، ومن أساء فعليها، وما كان منهم من إحسان وطاعة وإيمان فلهم، وما كان منهم من معصية وسواية [1] فعليهم، وجعل لهم سبحانه على الاستطاعة ثواباً، وأوجب لهم على المعصية عقاباً.

---

(١) السواية: السوء.

ولا يجوز في عدل الله الواحد الكريم، أن يأمر بطاعته ويرسل النبيين، معذرين ومنذرين ومبشرين، إلا وقد جعل لهم إلى ما أمر به من الطاعة سبيلاً، وأبان لهم إليه طريقا، ولا ينهاهم عن معصيته ويذمهم في مخالفته، إلا وقد أمرهم بتركها، ومكّنهم من اعتزالها والرفض لها، لأنه سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، متعال عن ظلم عبيده، رؤوف بخلقه، وفي ذلك ما يقول عز وجل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٤٧]. فلو لا أنهم قد مُكّنوا من الطاعة، وخلق لهم سبحانه الاستطاعة، ما قال:﴿ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾. وكيف يقدر على شكر وإيمان، أو دين أو إحسان، من قد منع من ذلك، وقضى عليه بضده حتماً؟! أو كيف يندبهم إلى ما قد حال بينهم وبينه؟! وهو الرحمن الرؤوف بهم، المتفضل عليهم.

ويقول سبحانه: و ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف:٥٨]. فقد صفح ذو العزة عنهم في هذه الدنيا، وأملى لهم وأعذر، فكيف يوآخذهم في الآخرة بما لم يجترموا، وما لم - في أعمالهم ساعة - يعملوا، وهذا من المقال فاسد مدخول، لا يقبله إلا كل عقل مخبول.

إن الله عز وجل أنزل كتابه، وجعل فيه شفاء الصدور، وبيان الأمور، وفيه الحق والبيان، والعدل والإحسان، ولن يضل مَن تعلّق به، وعمل بأحكامه، ووقف عند أمره.

وهل يقدر أحد أن يقول: إن الموصي بقضاء من الله وقدر، بعد ما بيّن الله في كتابه، إلا أن يكون مكابراً لعقله، تاركاً لتمييزه، فمثله كما قال الله سبحانه: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧]. فأصبح بتركه الحق غَوِيَ رشده، وترك يقينا قصده، وإلا فمتى يستجاب من قال إن الله يقضي بالمعاصي ويدعو ربه على ستر العورة، وهو يزعم أن الساتر لها الذي

أدخله فيها، وجبره عليها وألزمه إياها، وممن يطلب غفران الذنب؟! وهو يزعم أن الذي يغفره هو الذي أوقعه في الذنب، وألزمه الخطيئة!! فكيف يستغفر الله من فعله؟! أو يتوب إليه من قضائه؟! هذا قول محال، والله سبحانه منه بريء وعنه متقدس أن يقضي بالفساد، ولا يقضي بظلم العباد، فإليه نرغب في التوفيق والسداد، إنه ولي كل نعمة، والدافع لكل نازلة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومما سئل عنه من زعم أن أفعال العباد بقضاء من الله وقدر واستطاعة تحدث عند الفعل، أن يقال له: هل يقدر من كان مثلنا في طولنا وقدرنا أن يمس السماء، أو يأخذ القمر؟

فإن قالوا: لا يكون ذلك ولا يمكن.

قيل لهم: فإن رُفع إلى السماء، أو أحدث الله سبباً بقدرته على ذلك؟

فإذا قالوا: لا يقدر بما ذكرتم من هذه الأشياء.

قيل لهم: أفليس هذه الأشياء غيره؟

فلا بد من قول: نعم.

فيقال لهم: أفيجوز أن يكلف الله الكافر الإيمان؟

فإن قالوا: نعم، يلحق الإيمان قبل نزولها.

قيل لهم: فكذلك أيضاً يجب أن يلحق الإنسان السماء من قبل نزول سبب يقدر به على ذلك.

فإذا قالوا: لا يمكن حتى تحدث استطاعة من الله له في ذلك.

قيل لهم: أفيجوز أن يكلف الكافر الإيمان، والإيمان لا يكون من الكافرين، حتى يحدث لهم قوة هي غيرهم، كما لا يجوز أن يكلفنا أن نلمس النجوم ونحن لا نقدر على ذلك حتى يكون السبب الذي هو غيرنا، فبينوا لنا ذلك، وافرقوا بين المعنيين، فلن تجدوا إلى غيره سبيلاً إلا الرجوع إلى الحق.

ومما يسئلون عنه من حكم كتاب الله، أن يقال لهم: خبِّرونا عن قول الله تباركت أسماؤه، وجل ثناؤه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٦-٢٧]. أفليس قد أخبر الله عز وجل أنه إنما يريد البيان لهم والتوبة والهدى، وأراد الكافرون الزيغ والردى؟

فإن قالوا: نعم، رجعوا إلى الحق، وتركوا قول الباطل، وإن [1] قالوا: بل الله أراد الميل وقضى به عليهم، خالفوا الله في قوله، ونسبوا إليه ما لم ينسبه إلى نفسه، وصدَّقوا قول المبطلين، وشكُّوا في قول رب العالمين، فهذا من أقبح مقال، وأحول محال.

ثم قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠]. وزعمت القدرية المجبرة أن الله يقضي بضد العدل والإحسان، ويريد الجور والعصيان، والله سبحانه ينفي ذلك عن نفسه بما بين في كتابه، أفيجوز لمسلم يؤمن بالله أن يُصَدِّق الظالمين في كذبهم، ويترك ما أراد الله عز وجل من إرادته وحكمه وعدله؟! والله أحق بالصدق والعدل منهم، وتعالى عما يقول فيه الظالمون، وينسبه إليه الجائرون.

ويقال لمن قال إن الله يقضي بخلق أفعال العباد: خبِّرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ

---

(١) في المخطوط: فإن. ولعل الصواب ما أثبت.

عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٨]، أفيقدر أحد أن يقول: إنهم صدقوا في قولهم: إن الله لم يشأ إيمانهم؟

فإن قال بذلك قائل، كذّب الله وصدَّقهم، ومن قال بذلك فقد كفر وتعدى، وخرج في أمر الله إلى الباطل والاستهزاء.

فإن قالوا: بلى، كذبوا على الله، وقد شاء منهم الإيمان ودعاهم إليه، و لم يشأ منهم الشرك، رجعوا عن قولهم، وصاروا إلى الحق في دينهم.

ومما يسئلون عنه، أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٧]. أفيقولون: شركاؤهم الذين زينوا لهم قتل أولادهم ليردوهم بقتل أولادهم؟

فإن قالوا: نعم، هم المزينون لهم دين الله رجعوا عن قولهم، وقالوا بالصدق على ربهم.

وإن قالوا: بل الله قضى بذلك عليهم، وزين لهم، فقد ردوا كتاب الله وتركوا الحق والصواب، وصاروا بقولهم إلى شر مآب.

ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ قَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢]. فلا يخلو أمره سبحانه لنبيه عليه السلام، أن يقاتلهم من أحد المعنيين:

إما أن يكون كفرهم ومعصيتهم بقضاء منه عز وجل، قضى به عليهم وأدخلهم فيه، فليس في قضاء الله حيلة لهم، فقد ظلمهم إذحال بينهم وبين الإيمان، وقضى عليهم بالكفر والعصيان، ثم أمر نبيه بقتلهم وقتالهم، وحض على جهادهم، وأمر نبيه بقتلهم، وأن يكلفهم من التوبة أمراً لا سبيل لهم إليه،

فكأنه إنما عذبهم على فعله، وعاقبهم على إرادته وقضائهن عز وجل عن ذلك، وتعالى ربنا الواحد الكريم.

أو تكون الطاعة التي أمر بها نبيه بقتالهم حتى يفيئوا إليها هم عليها قـادرون، وبها مستمسكون مخيرون، فقتالهم واجب، والفرض من الله فيهم لازم، حتى يتركوا هوى أنفسهم، ويرجعوا إلى طاعة ربهم، فمن رجع إلى هذا القول صح قوله، وسلم من معصية ربه.

ومما يسئلون عنه، أن يقال لهم: خبرونا عن المُقْعد الذي خلقه الله [مقعدا] هل تلزمه الصلاة قائما لا يحل له غير ذلك؟! وإن صلى قاعداً لزمنا التغيير عليـه، كما يلزمنا التغيير على من صلى قاعداً وهو يطيق القيام؟!

فإن قالوا: يلزم المقعد أن يصلي قائماً، فقد كلفوه ما لا يطيق، ولا يجد إليـه سبيلا.

وإن قالوا: يصلي قاعداً وهو عند الله معذور، وعندنا غير مذموم، لأنه ممنوع من ذلك لا حيلة له إليه، لأن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، فقـد أصـابوا الحق، ورجعوا عن الباطل إلى الصدق.

فيقال لهم: فما بالكم عذرتم هذا المقعد وحكمتم له عند الله بالسلامة؟ إذ كان لا يطيق القيام لما ابتلاه الله به، ولم تعذروا مَن منعه الله من الطاعة، وقضـى عليه بالمعصية، كما قضى على المقعد بالقعود، فلم يكن له حيلة، كذلك قضى على العاصي بالمعصية، فلم يكن له إلى الطاعة سبيل، فيجب في عدل الله عز وجل ألا يعذب من حكم عليه وقضى بالكفر، إذ منعه من الطاعة، ويجـب على المسلمين أن لا يكرهوا ما أراد الله، وأن يقوموا بعذر هذا الكافر المقضي عليه، كما قاموا بعذر المقعد في الصلاة، إذ لا حيلة له إلى غير ذلك، وإلا فما الفرق بين القضائين، والحكمين؟ لا فرق بينهما عند من أنصف وعقل، إلا أن يكابر مكابرة، فيشهد بالعجز على نفسه، ولا تجب مناظرته، لما بـان مِـن جهلِه، وقلة فهمه.

ومما يُسئل عنه من قال: إنه لا يكون مستطيعاً للفعل إلا عند الفعل ونزوله: خبرونا عن رجل أعتق عبيداً له متى استطاع أن يعتقهم في حال هم فيها مماليك، أم في حال هم فيه أحرار؟!

فإن زعموا أنه استطاع أن يعتقهم في حال هم فيها عبيد، فقد زعموا أن الاستطاعة قبل الفعل!! لأن حال العبودية فيهم قبل حال العتق.

فإن قالوا بذلك، فقد أنصفوا ورجعوا إلى الحق، وتركوا قولهم.

وإن زعموا أنه استطاع أن يعتقهم وهم أحرار، فقد زعموا أن الناس يستطيعون عتق الأحرار، وهذا خروج من العقل والصواب.

(ومن سورة بني إسرائيل)

قوله عز وجل: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الإعراض منه صلى الله عليه وآله وسلم عنهم هو الاشتغال بذكر ربه وعبادته، في بعض الأوقات دونهم، فأمره إذا أعرض عن الاشتغال بهم، وخلا بنفسه من عبادة الله وذكره دونهم، أن يقول لهم قولاً ميسوراً، والميسور هاهنا: اليسر من القول، وهو القول الحسن اللطيف المقبول.

(ومن سورة مريم)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني أي: لم أكن لما أعلم من رحمتك ورأفتك واستجابتك لمن دعا بما يعطيه عند الدعاء من مواهب نعمتك بأشقى خلقك في سعة رحمتك، بأن تجيبني من الإجابة عند دعوتك، تواضعاً من زكريا صلى الله عليه، وأنه لا يزكي نفسه، ولا يوجب لها الإجابة من الله إلا بإحسانه وفضله وامتنانه، وأنه لم يوجب على الله إجابته في دعائه، إلا

بفضل الله ورحمته وجوده في عطائه، هذا وزكريا نبي من أفاضل الأنبياء في طاعة الله وعمل البر والتقى.

قوله عز وجل: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العتي: القديم الذي قد بلغ صاحبه غاية ما يكون من قسوته ويبسه وشدته عند الهرم.

قوله عز وجل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: القوة هاهنا ما وهب الله ليحيى من فضل اللب والفهم والحكمة، فكانت القوة التي جعلها الله فيه من ذلك قوة قَوَّتْهُ، ونعمة ذكرها الله أنه أنعم بها عليه شريفة سنية، فمن فضل قوته ما آتاه الله في الصبا من حكمته، فكان في ذلك على أفضل ما يكون عليه الكبير الكامل من الأنبياء في كمال سنه وإطاقته، والحنان: الرحيم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني أمراً نافذ فيه المشيئة، لا بد أن تكون فيه الآية التي أراد الله مقضية.

قوله عز وجل: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني: أصارها وألجأها.

قوله عز وجل: ﴿تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السري هاهنا الولد الذي وهبه الله لها البر التقي، ومَن أسرى أو أنبل أو أتقى من عيسى صلى الله عليه؟! وأين عطية أو ولداً وهبه أفضل مما وهبه الله وجعل تحتها منه؟!

قوله عز وجل: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الصوم هو المعروف من صيام الأيام، وهو الإمساك عن الشراب والطعام، غير أنه كان من معروف صوم

العُبَّاد من بني إسرائيل مع الإمساك من الشراب والطعام، الوقوف بالصمت عن الكلام، لاتقاء اللغو واللفظ بالآثام.

قوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الفري الفاحش، والفرية والشتيمة الفاحشة.

قوله عز وجل: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذه الكلمة تقال عند جهل الجاهل، يقولها عند طيش الجاهلين الحلماء من المتقين، وتوقير إبراهيم عليه السلام لأبيه في أبوته وبره بالوالد، قبل أن يبين عنده ما بان له من مشاقته لله وعداوته، هذه الكلمة منه صلى الله عنه مخرجها مخرج توقير ورفق بأبيه، عند دعائه له من أمر الله إلى ما دعاه إليه، فلما عصاه واستكبر عن الهدى والحق فأباه، بان له أنه عدو لله، كان من إبراهيم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من ترك الاستغفار له والتبرؤ منه، وقطع الولاية بينه وبينه والإعراض، قال الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

قوله عز وجل: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم: أي: مجتهداً.

قوله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: قيل: إن الله رفع إدريس صلى الله عليه إلى السماء، فكان سماوياً، وهذا ما لا ينكره أحد يعقل من المؤمنين، أن يفعل بمن شاء من أنبيائه الصالحين.

قوله عز وجل: ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: البُكيُّ: الباكون.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذه دلالة من الله سبحانه على أن من ضل وعصى، كلما مُدَّ له من التأخير والأجل كان ذلك أروى وأشر. وكان عذابه إذ لا يتوب من خطيئته في طول المدة والمهل، أكبر وأعظم وأوفر وأجلّ، لأنه كلما مد له في مهله، كان أكبر لما يُرتكب من سيئات ذنوبه، وكان أكبر لما يحله الله من العذاب في معاده.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يخبر الله تبارك وتعالى أن آجال العصاة الكفرة من العبيد، آجال عدد تفني عن قليل وتبيد، وإنها ليست بآجال بقاء وتخليد.

قوله عز وجل: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الود المحبة والرضى عنده وعند الصالحين من أهل الأرض، وجميع الملائكة من أهل السماء، ولكفى بهذه فضيلة ونعمة جليلة، أن يكون من ثوابهم في حياة دنياهم ومرجعهم، رضى الله عنهم ووده ومحبته لهم، وود أهل سماواته والصالحين ممن في أرضه إياهم.

قوله عز وجل: لـ ﴿ تُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: اللد: من كان يبدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قريش والعرب من أهل الجاهلية، فيدبرون عما يلزمهم من حجج الحق، ويجحدون ما يبين لهم من ذلك ويتناهون، وهم الذين ذكر الله فقال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف:٥٨].

قوله عز وجل: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الركز في اللسان هو الذكر والحس.

(ومن سورة طه)

قوله عز وجل: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: لا يتوهم أحد لعل من الله وعسى، شكا منه سبحانه ولا امتراء، وذلك مخرجه عدل في الحكم، وما يجوز عند الامتحان من هذا الاسم، فلما أن كان الله تبارك وتعالى إنما يعذب ويعاقب بعد الإعذار والحجة، وكان الرسول موسى صلى الله عليه لا يحيط بما يحيط الله به في كل غيب وشهادة، وكان الله عالماً بأن الحجة إنما تجب على فرعون بتبليغ موسى له الرسالة، كان مخرج موسى تسهيلاً على موسى لمحنة الكلفة، في تبليغ فرعون مع عتوه وخوفه له ما أمره به في تبليغ الرسالة، وصحت لعل في المقالة، لأنه وإن علم أن فرعون لا يكون مؤمناً، فقد علم أنه لو اختار الإيمان لكان ممكنا، فطوى سبحانه العلم فيها عن موسى بأنه لا يؤمن بقوله: ﴿لَعَلَّ﴾ في المستطاع الممكن.

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. فقد علم تبارك وتعالى أنهم إذا أحسنوا تيبَ عليهم وأثيبوا، ولكن عسى هاهنا مخرجها مخرج تأديب من الله وترهيب، وتنبيه على ترك الثبات ممن أحسن على إحسانه، اتكالاً على ما مضى في وقت من الأوقات من صالح عمله، وليكون العبد وجلاً مع رجائه وأمله.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾.

يقول: يسرف.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني بـ ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾: جميع ما أنعم الله به عليهم، وأعطاهم من عطاء النعم، بما هو عليه من رحمته والرأفة بهم والفضل والجود والكرم، وأعطاهم جميع النعم التي آتاهم، لم يقتصر على ذلك حتى فهَّمَهم الحق في دينه وهداهم، فآتاهم من الهدى أعظم النعم كلها عظماً، لما يثيبهم على الهدى من نعيم جنته فضلاً وكرماً.

قوله عز وجل: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السوى: المكان المستوي البارز في الأرض الذي لا يخفى، و ﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾: يوم عيدهم الذي فيه يتزينون فيحلفون، ووعدهم من يوم عيدهم في أوله وضحوته، قبل افتراق الناس من مجمعهم ورجوعِ مَن يرجع منهم إلى بيته، وكأنه أراد بذلك فضيحتهم على رؤوس الملأ، وكان الأعياد لم تزل في أول النهار قديماً، لأن صدر النهار أفضل من آخره.

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾. معناه: يستأصلكم.

قوله: ﴿ فَنَسِىَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هو نسي هارون أن يذكّرهم بأنه لا يرجع إليهم قولاً، تذكيراً وتنبيهاً.

قوله: ﴿ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾. هو: مَنَّتني نفسي، والتسولة: المنية، سواء قيل: سولت لنفسك أو منيت نفسك.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾. فقال: العوج في الأرض: الإلتواء والإرتفاع والإنخفاض الشديد الفاحش، والأَمْتُ: القليل اليسير، بين التعادي والإختلاف الذي ليس بكثير.

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾. الهمس: الوطىء الخفي كوطىء خفاف الإبل التي همس مشيتها، ليس بذي صوت علي، قال الشاعر:

ــــ ــــ ــــ ــــ ــــ ....

يعني بالهميس: الوطىء الخفي الحسيس، فالناس في حشرهم، ولما هم فيه من فزعه وذعرهم، وانحلال قواهم، لما عاينوا ما دهاهم، مشيهم همس خفي وأصواتهم منقطعة فلا يتكلمون، ولا يسمع لجرس ألسنتهم إلا حسٌّ بأقدامهم إذ يمشون.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾. أي: لا يدركه علمهم إلا بما علّمهم وفهّمهم من تثبيت اسمه وربوبيته، وأنه لا يشبهه شيء من خليقته.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يقول: ذلت الوجوه وخشعت.

قوله عز وجل: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المعنى في ذلك - والله أعلم - لعلهم بما خوّفهم الله به من وعيده في كتابه، فلعلهم يتقون ولا يعصون، ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾، فيتفكرون ويتذكرون.

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معنى ذلك - والله أعلم - أي: لا تعجل بالإنذار بالسورة أو الآية المذكورة فيها القصة، والقصص أو الموعظة من قبل تمامها وكمالها وقضائها، وأمرك بتبليغ إيجابها.

(ومن سورة الأنبياء)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الإستحسار: الإعياء.

قوله عز وجل: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يذكر - والله أعلم - من قصة هذه الغنم أنها كانت غنما تفلّتت ونفشت ليلا، والنفش في لسان العرب إنما يكون بالليل من البهائم لا نهاراً، فذكروا أنها أكلت بعض ما في الحرث من حبه وثمره، ... [1] ثم إنهم تحاكموا فيما يقال إلى داود صلى الله عليه فقضى فيما ذكروا بها لأهل الحرث، وقال بعضهم: بل قضى بالقيمة، وكانت القيمة أكثر من ثمن الغنم.

فذكر أن سليمان صلى الله عليه أفتى فيها بخلاف ما حكم به أبوه داود صلى الله عليه من القضاء على أهلها، أن يجعل لأهل الأرض ما في بطون الغنم من أولادها، و لم يعرض لأهلها وتركها في يد صاحبها.

وقضى بالنسل الذي في بطون الغنم لصاحب الحرث، إذ كانت إنما أفسدت عليه ثمرة أرضه ونسل حرثه، فقضى في ذلك سليمان صلى الله عليه بالحكم المصيب الذي رضيه الله، وذكر في كتابه فَهْمَه له.

وكذا جاء الحكم والخبر فيه عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أنه تحاكم إليه أهل ماشية وأهل ضيعة، أفسدت الماشية عليهم بعض ما فيها من الزرع والثمرة، فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أهل المواشي

---

(١) بياض في المخطوط.

بضمان ما أفسدت مواشيهم وقيمته ليلاً، وأسقط عنهم الضمان وقيمة الفساد نهاراً.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: إن قال قائل قضية داود بخلاف قضية سليمان كان صواباً أم خطأ؟! فإن كان صواباً فكيف يكون الواقع يختلف حكمهما وهما صوابان؟! وإن يكن خطأ فالنبي يخطيء في مثل هذه الجليلة من المسائل؟!

قيل له: قد حكم داود بوجه من الحكومة مصيب يزيل الخطأ، وحكم ابنه سليمان بما هو أحسن عند الله وأكثر صواباً، وأشد في العدل تمكنا وتوسطا.

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: عنى الله تبارك وتعالى القرى، التي دمرها وأهلكها بالمعاصي فيما مضى، أهل محرم عليها أن ترجع إلى عمارتها، ... [1] وأهلها والسكنى فيها، لأنه ليس من قرية أهلكها الله إلا بالانتقام والغضب، فلن تعمر أبداً إلى يوم القيامة بعد غضب، والحرام اسم في نفسه حيث انحرف وانصرف، فهو تغليظ المنع وهو المنع بعينه، فعنى الله عز وجل ﴿حَرَامٌ﴾ أنه منعٌ ممنوع لكل قرية أهلكها من الرجوع بالعمران إلى حالها، أو أن يرى أحد من نسل أهلها، وكذلك اللسان العربي فيما حرم الله من جميع الآثام والمعاصي، فإنما معناه المنع بعينه.

قوله عز وجل: ﴿هُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الحدب هو كل ما ارتفع من الأرض واحدَوْدَبَ، كالتلاع والرُّبا والآكام، وما أشرف من الأرض فهو حدب، ونسولهم إسراعهم في المشي وعجلهم، عند أمر الله النازل في القيامة بهم.

---

(١) بياض في المخطوط.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: آذنتكم في اللسان والبيان إنما هو أعلمتكم، والسواء فهو المكان العالي الذي ليس بذي ستر ولا خفاء.

(ومن سورة الحج)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: النصر من الله قد يكون منه سبحانه بالعلو في الدنيا والغلبة، وقد يكون يوم المعاد والآخرة، وقد يكون النصر منه تعالى بإظهار العلم والبرهان والحجة، ويكون تأخير النصر في الدنيا عن أوليائه زيادة لهم في الدرجات والمثوبة.

قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: التفث ما يصيب المحرم لتقشفه من الغبار، والشعث في الشعر والبشر، فأمره الله بقطعه وقضاءه، وقضائه فهو قطعه بعينه، وذلك عند رمي الجمار، فإذا قضوا مشاعرهم قطعوا تفثهم، وقضوا نذورهم التي نذروا في حجهم، من صدقة أو دم أو قربة، نذروها من البر يتقربون بها إلى ربهم، فالطواف بالبيت طوافان: أحدهما الطواف بالكعبة عند دخول مكة، والطواف الآخر طواف الزيادة.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يقول: أَعلِمْ الناس وصوِّتْ بهم، وأسمِع وأظهِر فريضة الله في الحج عليهم.

قوله عز وجل: ﴿ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العاكف فيه من أهل مكة، ومن صار إليها من النواحي البادية، فهم فيه كلهم سواء، ليس بعضهم أولى بالصلاة فيه من بعض، وهم سواء في الطواف والصلاة والمقاعد، وهو لكلهم

مسجد لا يتعدى فيه أحد، ولا يستحقه قوي دون ضعيف، سواء المحقور فيه والمعظَّم الشريف.

قوله عز وجل: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: منافعهم ما يجب من ثواب الله لهم بطاعتهم له في أداء مناسك حجهم، ومنافعهم وبركة محضرهم ومواسمهم، بما يكون من تجارتهم، وما يصيبون من مرفق أرباح بيعاتهم، التي جعلها الله لهم، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى في كتابه من توسعة في طلب الرزق في أيام الحج لعباده: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨].

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الصوآف القيام كانت في قيامها مشدودة الأيدي بالعقل، أو إطلاقا غير معقولة، وذلك إذا أقيمت صفا عند نحرها موجهة إلى القبلة، ثم قام من ينحرها إليها، فالواجب عليه ذكر اسم الله عليها وهي صواف، إذا هوى للباتها ناحراً عند نحرها، وقبل وقوع النحر عليها، فإذا خرَّت سقوطاً إلى الأرض ومالت واجبة جنوبها، فكلوا حينئذ منها، وأطعموا البائس الفقير، فذلك الأجر فيه وعليه من أعظم ما فيها من الخير.

قوله عز وجل: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا خبر من الله سبحانه على أن الأغذية والمطاعم لا تناله، وأنه لا يأكل سبحانه ولا يطعم، ولا يناله لحم

يُغتذى به ولا دم، بل هو الذي ﴿ يُطْعِمُ - سبحانه كما قال - وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤].

ثم أخبر أن التقوى تناله، ونيل التقوى له رضاه بفعلها، وقبوله لها من أهلها، فذلك هو نيلها له، ووصولها إليه.

وأخبر تبارك وتعالى أنه إنما أحب البُدن والذبائح في الحج وجعلها من شعائره، لما يريد برحمته من نفعها للضعيف في ارتفاقه بلحمها، واستغاثته بما يصير إليه منها، على فقره وعسره، رحمة منه للمساكين والفقراء، وثوابا أعطاه على ما أحب من البُدن الأتقياء.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يخبر الله سبحانه عما وقع بتخليته للناس وتمكينه لهم من الاختيار فيما يفعلون مِن فعل الشر، وما يختارون مِن فعل البر، أن ذلك مما وقع به التبار والتعادي بنيهم، وأن في تضآرهم وتمانعهم دفعا من الله بعضهم من بعض، عن الفساد والإيعاث في الأرض، الذي فيه هدم البِيَع والصلوات، وتخريب المساجد التي يذكر اسم الله فيها بالغدوة والعشيات، فدفاع الله بعضهم ببعض هو المانع لهم من تخريب المساجد والصوامع والبيع والصلوات الذي هو تعطيلها، والتدافع الذي بينهم والتمانع هو الذي به شُغلوا عن هدم البيع والصلوات، والصوامع فهي التي يكون فيها الرهبان، وهي معروفة لمترهبي النصارى في البلدان.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المشيد العالي المشرف الرفيع المزخرف، فأخبر الله سبحانه عن القصر المشيد الذي كان بسماكيه عامراً،

والماء من البئر المعطلة الذي كان مورداً مرة أهلا، وعن تعطيلها وخرابها وزوال عامرها، تذكيراً بزوال الدنيا وفنائها، وتحذيراً للاغترار بشرابها.

قوله عز وجل: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المنسك هو ما تُقُرِّبَ بفعله إلى الله من أداء معلوم فرائضه في الدين، فليس من أمة من أمم الأنبياء إلا وقد فرض الله عليهم شرعة ومنسكا يكونون فيه بطاعة الله ناسكين.

(ومن سورة المؤمنين)

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: أي: فاز. ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾. أي: الباطل. ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾. أي: مؤدون. ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾. أي: سبع سماوات أطباقا بعضها فوق بعض. ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾. أي: يكون أفضل منكم. فـ ﴿ اوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾. الربوة: المكان المرتفع. و ﴿ قَرَارٍ ﴾: السهل. ﴿ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾: هو ما سال من الموضع المرتفع كما تسيل العيون. والمعين فهو في اللسان العربي: العين الثابتة التي تقل عن أن تدعا باسم العيون، فتلك معين كانت في جبل أو في ربوة.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الأمة في لسان العرب: القصد يؤتم. يقول الله سبحانه: إن قصدكم الذي تقصدون، وأمتكم التي تأتمون واحدة، يعني سبحانه: طريقاً واحداً غير اثنين، إذ كلهم مأمورون بعبادة الله وحده، وبالسلوك في سبيله وقصده، وخلع الأنداد من دونه، والشهادة له

بواحدانيته، وأنه لا إله ولا رب غيره، فربهم الله ومَعمَدُهم وأمتهم الذي هـو قصدهم سبحانه وتعالى، وله المثل الأعلى.

و ﴿ تَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾. المعنى فيه: فتقطعوا عن مذاهبهم، واختلفوا في مقالاتهم، ﴿ زُبُرًا ﴾. أي: قطعاً عن الجماعات مفترقين في الدين، سـالكين في صلاتهم في طرق مختلفـات. ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾. لا ينصفون حجج الله وما دعاهم إليه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيتوبون.

قوله عز وجـل: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الغمر مثل الغريق يغمره الماء، فمثَّل قلوبهم بالغمرة التي وقع فيها غرق، وذلك لغفلتهم وإعراضهم، وبـأنهم لمَا سمعوا من الحق فقلوبهم عن ذلك في غمرة، وأعمالهم التي هم لها عاملون، فأشغال دنياهم وإيثارهم شهواتهم وأهوائهم التي هم لها علـى ديـن الحـق مؤثرون، فهم من ذلك كله في لجة، فيها قلوبهم في غمرة كغمرة الماء، غرقـة فهم فيها غرقون. الـ ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ (١): الحين من الدهر والأمد، قال: والحين: الزمان.

قوله عز وجل: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معناه: هزواء، لأنهم كـانوا يسخرون ويهزؤون بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، فيما يدعوهم إليه من أمر الله والحق والدين، فلما كثر أذاهم لهم، وهزوءهم وسخريتهم بهم، أمسـك بعض الإمساك عن تذكيرهم لما بلغ منه من الأذى بهزوءهم، وما نالهم مـن

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

شرهم، قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي ﴾. ومعنى ﴿ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي ﴾: تركوكم من التذكرة لشدة سخريتكم واستهزائكم.

(ومن سورة النور)

قوله عز وجل: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا تحريم من الله سبحانه على المؤمنين لنكاح الزراني من النساء العواهر المعلنات بالفجور، وتحريم منه على المؤمنات لنكاح الزناة من الرجال المعروفين بالفسق والزنا والعهور.

أخبر الله سبحانه أن الزانية لا ينكحها إلا زان، وأنه لا ينكحها أحد من أهل الطهارة والإيمان، وأخبر أن الزاني لا ينكح مؤمنة، ولا ينكح إلا زانية أو مشركة، لأن المؤمنة لو جعل لها ملء الأرض ذهبا ما نكحت زانيا، ولا رضيت أن تكون له زوجة.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. تحريماً على المؤمنين لنكاح الزانية، وتحريماً على المؤمنة لنكاح الزاني، وتفريقا من الله بين الإيمان والطاعة، وبين من عصى بكبائر العصيان.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾: العفائف، و﴿ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ﴾: المؤمنات اللاتي قد أغفلهن ما يَعلَمْنَ من طهارة أنفسهن وإيمانهن وعفتهن، عما يقول به المفترون القاذفون، الباهتون الكاذبون، من الافتراء والقذف بباطل الكذب لهن.

قوله عز وجل: ﴿ ٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ هاهنا المنسوب إلى الطيبات، لطيب العفة والطهارة مما قال الكاذبون ورموهن به مبطلين من الفاحشات، اللواتي هن طيبات طاهرات عنها بعيدات.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ (١) وهل يجوز أن تظهر للكوافر؟

فقال: النساء من كُنَّ من معارفهن وقرابتهن ذوات العفة، المأمونات عليهن. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: فهو من أهل العفة، لا من أهل الفسق والشطارة والمجونة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المزجى من الدوآب والسحاب هو القليل عند سوقه، البطيء السير الذي إنما يزجى بالإكراه في سيره.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السماء هاهنا: السحاب، والجبال - والله أعلم - ما كثف من السحاب وعَظُمَ، وقد زعم بعض من يقول من العامة: أن في السماء جبالاً من برد، والتأويل الأول، والله أعلم بالصواب والقصد.

وقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ (١) الآية.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ...﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: قد فعل ما وعد سبحانه، فكان ممن استخلف في الأرض أفضل المؤمنين بعد نبيه علي بن أبي طالب، ذا القرابة برسوله، وكذلك استخلف الخلفاء الصالحين من أهل الإيمان من ذريته وآله، ومن استخلف بالصلاح والإصلاح والاستحقاق ورَأَّسَ وأَمَّر مع علي بن أبي طالب من أصحاب نبيه، فهذا وعد وعده الله المؤمنين، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ثابت مقيم، فأنزل الله عليه هذا الوعد، وروى فيه صدق ما أخبروا به من الخبر، فملكوا في أيامه، واستخلفوا بأمره وتأميره على آفاق أرض العرب، من اليمن وعمان والبحرين ومكة ونواحي الشام، في قرى لا تحصى من قرى العرب الكبار، ثم استخلفوا بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بحكم الله بالاستخلاف لمن جعل له الفضل منهم، وإيماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإشارته بالاستخلاف إليه.

قوله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ... ﴾ (٢) الآية.

---

(١) كمال الآية: ﴿ ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(٢) كمال الآية: ﴿ ... وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا جواب مسألة كانت من بعض المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو خبر من الله ابتدأهم به يدل على سقوط فرض المجاهدة بالقتال في سبيله على الأعمى والأعرج والمريض الممنوع بمرضه، ويخبر الله سبحانه أيضا عن أنفس المؤمنين، أنه لا جناح عليهم في الأكل في بيوت الأصدقاء بغير أذن، ومَن ذكر من ذوي القربى والأرحام والأقربين، لما أسقط الله بالأخوة في الإسلام، والصداقة المحفوظة عند الأحرار الكرام، والقرابة التي جعلها بين ذوي الأرحام من الحشمة والوحشة في تناول الطعام، إذا احتاج إليه المؤمن أخذه بإذن الله فيه، ودعائه بلا توحش ولا تحشم، وإنما هذا بما يحتاج إليه من الأكل عند غشيان بيوت هؤلاء المذكورين من ذوي الرحم، والأخوة والصداقة، لا إذن في ادخار طعام ولا نقله، ولا أخذ وَرِق ولا ذهب بغير إذن ولا نفقة، ولو كان ما يحل من بيوت مَن ذكر الله سبحانه من القرابة والصداقة إنما أحله الله بالإذن منهم، لكان الإذن أيضا يحل به طعام أهل البعد والأعداء، لم يكن لقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾، خاصة إذن في طعام مَن سمى، لأن كل قريب وبعيد وولي وعدو بعد الإذن يكون جائزاً.

(ومن سورة الفرقان)

قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني سبحانه: جعل المرسلين، والمرسل إليهم أجمعين، فتنة بعضهم لبعض، والفتنة هاهنا: اختبار ومحنة، فاختبر

جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

صبر المرسلين وطاعتهم بأداء الرسالة وتبليغها، وامتحن الذين أرسل الرسول إليهم بالإيمان والتصديق برسالتهم، وما جاءوا به من الحجج البينة، الدالة على النبوة، وبما امتحنهم به مع رسله وعلى أيديهم من فرائض دينه وطاعته، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته، فبعضهم كما قال الله سبحانه: ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، والفتنة اختبار - كما قلنا - ومحنة، كما قال في موضع غير واحد، وكرره تكريراً من البلوى منه والاختبار، للعصاة الكفرة والمطيعين الأبرار، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١].

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: يوم القيامة، يشققها بالسحاب وهو من آيات الله العظيمة، وحينئذ كما قال الله تبارك وتعالى، ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، وهو كما قال الله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، لما يعاينون فيه من صدق الوعيد الذي كانوا ينكرون، ووقوع ما كانوا يكذبون به مما يحذرون، وتشققها بالغمام هو: خروجها من فتوقها وشقوقها.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: التتبير: الإبطال والتدمير.

﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾. أي: لا يأملون ولا يظنون النشور، الذي أخبرهم الله عنه، والبعثة لأبدانهم من القبور. والأجاج: الذي قد بلغ في شدة الملوحة ما يخرج به إلى المرارة.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معناه: ممنوعاً، لأن كل محجور فممنوع، وما حُجر من الأشياء فقد مُنع وحظر. ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧٧]، يعني: سوف تلزمون ما كرهتم من الدعاء إلى الدين، فيكون دعاؤكم لزاماً لازماً.

(ومن سورة الشعراء)

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: قد تقدم القول منا في مثل هذه الآية في سورة الحجر، عند قوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحجر:٧٨].

قوله عز وجل: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الريع: الموضع يكون بين جبلين صغيرين، أو في طرف الجبل الصغير، مستوى المكان يتهيأ ويحسن فيه البنيان.

﴿ فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الفرهون كلمة عربية تقوم مقام فرحين، والفَرِهُ: الفرح المفرط في فرحه، والفرح فعل وخُلُق يكرهه الله من أهل الدنيا، قال الله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦].

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: القسطاس: القسط، والإقساط في العدل، والوفاء في الميزان.

قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا توقيف من الله للمكذبين، الذين كذّبوا رسوله صلى الله عليه وآله، فيما جاء به عن الحق من الحق المبين، بما كانوا يسمعون في ذكر النبي ومبعثه من علماء بني إسرائيل قبل بعث الله لنبيه، لأن من كان يجاور قريشاً والعرب باليمن والواد وخيبر ويثرب من علماء بني إسرائيل، كانوا يذكرون من أمر النبي، ويرونه ويجدونه في كتبهم، قبل بعثة النبي، آية وحجة وبينة قوية.

ثم قال سبحانه في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠﴾. يعني - والله أعلم -: ما سلك الله من ذكر نبيه وأخباره ومبعثه، في آذان المشركين وقلوهم قبل بعثته، حتى وقع ذكر مبعثه بما كان يروي علماء بني إسرائيل لهم، تقديما من الله في الإحتجاج عليهم، ثم أخبرهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

(ومن سورة الروم)

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا خبر من الله سبحانه عن غلبة كانت للروم غُلِبُوها.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾. وقد يمكن - والله أعلم - أن تكون الغلبة التي غُلبت الروم ما كان من نصب الراية التي بعث لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأرض مؤنة من الشام، وهي أدنى الأرض التي كانت تلي أرض الإسلام، في أيام الرسول عليه السلام .

لان الله بعد إكرامه يوم مؤتة لجعفر وزيد وعبد الله بن رواحة، بما أكرمهم به من الشهادة نصر راية رسول الله تلك يومئذ وهي في يد خالد بن الوليد فيما ذكروا، فأنهزم الروم وغلبوا، وفرح المؤمنون بنصر الله إذ نصر، فكان هذا غلب الروم والغلب الذي غلبوه، هو والله اعلم غلب المؤمنين في ذلك الروم،

ورؤية النصر الذي أحبوه، ثم رجع الخبر من الله - والله أعلم - بالإضمار في المعنى، واللسان العربي إلى الاختصار للكلام والقصص، والتطويل للمختصر والإيجاز، فقال سبحانه: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾. يعني - والله أعلم - في هذه المرة ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ۝ ﴾ مرة ثانية.

ثم أخبر من وقت الخبر الثاني بآية عجيبة كانت مخبرة عن علم غيب، عُلم قبل وقوع الغلب الثاني، بأنها ستكون.عليه ثابتة، ثم أخبر الله في قوله: ﴿ بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾، بما هو أكثر في الدلالة على عجيب الآية واليقين، فكانت البضع سنين مدة ما بين وقعة مؤتة وبين فتح الشام، ففرح المؤمنون بنصر الله في تلك الأيام لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولدعوة نبيه، وما أظهر الله من أمر الإسلام بالغلب والقهر لأهل البلدان، من ملوك الروم وفارس بأرض المشرق والعراق، فهذه آية من آيات الرسول في نبوته، إخباره بظهور أصحابه يوم مؤتة على عدوهم من الروم بعد وفاته، وما كان من غلبتهم لهم في ذلك اليوم.

ثم أخبر عن غلب ثاني ستغلبُه الروم في بضع سنين، فرأى المؤمنون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة ما أخبر به وصدقه بأيقن اليقين، وعاينت ذلك منهم العيون أيام فتح الشام وغلبة الروم الثانية كخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، إذ لا يخبر عليه السلام إلا عن الله علام الغيوب، ولا يكون إخباره سبحانه إلا صدقاً وحقاً، ثم أخبر سبحانه أن لله القهر والقوة والقدرة، قبل أن تُغلب الروم وبعد أن غَلَبت.

(ومن سورة ص)

قوله عز وجل: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العزة: العتو والتعزز بالقسوة، وفي ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦].

قوله عز وجل: ﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني بالفواق: الرجوع والإنفطار.

قوله عز وجل: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني هاهنا بالإكفال: أن يجعل له مِلْكاً عليها حتى يكفلها ويجزيها.

قوله عز وجل: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

يعني سبحانه: ولا حين انفلات ولا نجاة ولا خلاص.

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا في أسراء الجن المصفدين، الذين ذكر الله أنهم في الأسار مقرنين، فأخبره تبارك وتعالى بأنه قد ملّكه إياهم، فإن شاء منَّ عليهم وخلاهم، وإن شاء أمسكهم، بغير حساب من الله يخافه فيهم.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: إن الله سبحانه ذكر ما آتى سليمان نبيه صلى الله عليه، من عظيم ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن يملكه من بعده، فذكر أنه آتاه الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وذكر ما آتاه من صفد الجن واستعماله فيما أحب من الأعمال، لفضل قوتهم ولما لهم من لطيف الاحتيال، فذكر في ذلك سبحانه ما ذكر من القصص والأخبار، وذكر ما آتى الله سليمان من الصافنات الجياد، وهي الخيل الكريمة الفاضلة العتاق.

ثم أخبر بهوان شأن الخيل وهي من كريم ما آتاه الله من الملك وجماله، وآلته وفضله، فذكر عرضه لها بالعشي، والصافنات من الخيل: القيام الكرام التوآم، في القَوَم والطول والأجسام، وكان سليمان صلى الله عليه يذكر الله سبحانه قبل غروب الشمس في كل عشية، ويسبحه قبل تواريها بالحجاب، فلما عرضت عليه الخيل الصافنات الجياد بالعشي تشاغل بها، وبكثرة ما عرض عليه منها، وكان بهذا إعجاب، حتى توارت الشمس غاربة في الحجاب، بنظره إليها حتى فاته ما كان أعز وآثر، وأكرم من أمر الدنيا وما فيها، من ذكر ربه وتسبيحه، والإقبال على ذلك دون غيره، فاغتم صلى الله عليه، عند فوات ذلك له، وعلم أن العارض له دونه الإعجاب بالخيل، فأراد أن يؤدب نفسه ويعاقبها، بإتلاف ما أعجبها وشغلها، عما هو أعظم نفعاً لها من تلك الخيل، فأمر بردها وإحضار كلما عرض عليه منها، ثم أمر بمسح أعناقها قتلا بالسيوف، وسوقها: عرقلته لعراقيبها، ليعلم الناس أنه فضَّل تسبيح الله وذِكْرَه، وآثر طاعته وأَمْرَه، على ما يؤثرون من محبوب دنياهم، وأن ذلك لا يساوي أكبر كبيرة وأكبر ما يعظمون من عظمته شيئا من ذكر ربهم، وطاعة مولاهم، وأراد تأديب نفسه إذ غفل ساعة واحدة بالخيل عن ذكر ربه.

(ومن سورة حمعسق)

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: نعم، الله الحاكم فيه عليكم، والفاصل فيه بينكم، فيما اختلفتم فيه حَكَمْتُ، وما لم يأمرني أن أحكم فيه بينكم لم أحكم وأمسكت، وما لم أجر الحكم فيه بينكم إلى يوم القيامة كان مؤخراً حتى يحكم فيه سبحانه يوم البعث وفصل الحكومة.

(سورة يس)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿ يسٓ ﴾.

قال أبو عبد الله محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين: ﴿ يسٓ ﴾ - والله أعلم - تفسيرها خفي، لأنها من العلم المصون، المخزون المكنون، لأن من القرآن ما نزله الله للناس كافة، كالخبر عن خلق الأرض والسماء وما بينهما، وما ذكر الله من الآيات والعبر بما خلق فيهما وفي غيرهما، وما ضرب الله فيه من الأمثال، وفرض من الفروض، وحرم من الحرام، وأحل من الحلال، وغير ذلك مما فيه من التذكير والقصص والأنباء، وما لا يحصى من البركات والخير، وأخبار الأنبياء، والوعد والوعيد الموصوفة، وما ذكر الله في الصُّور يوم القيامة من النفخة.

ومن القرآن ما نزله الله للنبي وجعل علمه له خاصة، وهو عن غيره من المؤمنين خفي.

وقد زعم بعض من زعم، أن ﴿ يسٓ ﴾ هي: يا محمد، وهذا فما لا يفهمه من أهل اللسان العربي أحد. ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾، فأقسم الله تبارك وتعالى بالقرآن الحكيم صادقاً لنبيه، وأنه من المرسلين، وكذلك هو صلى الله وعلى آله وسلم يقيناً حقا، وذكر تعالى من حكمة القرآن ما قد بان به من الكتاب أكثر البيان، فالقرآن في الحكمة غاية الغايات، قد جاز في حكمته وفضله جميع الصفات، فأخبر تعالى أن نبيه على المستقيم من الصراط. والصراط الطريق والمنهاج، المعتدل في الدين ليس فيه ميل ولا اعوجاج.

ثم أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾. وكذلك الله فهو الرحمن الرحيم، الذي جاز في العزة عز الأعزاء، وفي الرأفة والرحمة رأفة الرحماء، إذ لا يكون سواه عزيزاً ملكا عظيماً إلا هو، معرض عمن ملك قاسٍ

عليهم غير رؤوف من كبريائه، وملكه وعزته، الأعظم المحيط بملك جميع الملوك، إذ لا مثل له في ملكه وربوبيته، ولا ند ولا شريك، أرأف مَن رَؤُفَ، وأرحم مَن رَحم، بلغ من رأفته بالإنسان ورحمته له ما لا يبلغه الأب والأم.

ثم قال سبحانه مخبراً عن أنه بعث نبيه منذراً: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝ ﴾. ففي قوله: ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ تذكير لهم بالمنة التي مَنَّ بها عليهم، من بعثة رسوله عليه السلام بالنذارة إليهم، فبُعث صلى الله عليه وآله وسلم فيهم منذراً، وأتاهم وهم في غفلة ساهون عن الآخرة مخبراً، فخصهم من إرساله بما لم يمن على آبائهم بمثله، ثم قال لا إله إلا هو منبئاً عن علمه بكل غيب خبراً صادقا، أنه يملأ جهنم من عصاة الجن والإنس وأن هذا القول والخبر كان على أكثر أهل الجاهلية متحققاً، ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾. فكذلك كان أهل الجاهلية إذ هم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مكذبون.

ثم أخبر عن عقابه سبحانه لهم بكفرهم وتكذيبهم في يوم الدين، ومثّله لرقابهم بالأغلال التي جعل بعضها على بعض إلى أذقانهم، ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ ﴾. وهذا السد - والله أعلم - الذي من بين أيديهم ومن خلفهم، هو ما يغشى الكفار والمنافقين من الظلام في موقفهم يومئذ حتى يظلم بغشاوته أبصارهم، وهو حين تنكسف الشمس والقمر وتطمس النجوم، فيقع الظلام بزوال الأنوار في ذلك اليوم، وحينئذ ما يحتاج المؤمنون إلى النور، فيجعله الله من بين أيديهم وبأيمانهم ليأنسوا به ويبصروا، ويأمنوا ويطمئنوا ولا يرتاعوا، ويومئذ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا وهم من بين أيديهم: ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾ [الحديد:١٣]، يعنون: انتظرونا. نقتبس من نوركم، وحينئذ يقال لهم

تبكيتا وتوقيفا على حرمان الله إياهم كل ما يطلبون: ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾ [الحديد:١٣].

ثم قال سبحانه بعد خبره عن جعل الأغلال في أعناق الكافرين، وملء رقابهم بها إلى الأذقان، حتى هم لرؤوسهم إلى الأذقان مقمحون، والمقمحون فهم الذين للرؤوس [١]، ونبأ سبحانه عن علمه للغيب الذي يحيط بما كان وما يكون، فقال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾، يعني سبحانه: أن الإنذار بأخبار القيامة وترك الإنذار عندهم سواء، لما هم عليه من التكذيب للرسول والشك والإمتراء.

ثم أخبر عز وجل على أن النذارة إنما تنفع من تاب وآمن، واتبع التذكير والذكر فأيقن، ﴿ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾. والإيمان بالغيب فهو ما أخبر الله عنه مما يأتي به في الآخرة من البعث والنشور، وما أخبر عنه مما لم يكن بعد من غائب الأمور، فقَبلَ الخبر في ذلك المؤمنون، وأمنوا من عصياهم تصديقاً لخبر الله عن الغيب فهم لا يعصون، فشكر الله بالغيب إيماهم، وذكر تصديقهم لما نبأ به من أخبار الغيوب وإيقاهم.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن صدق ما وعد من إحيائه للموتى، وكتابه لما قدموا من أعمالهم وآثارهم في أيام حياهم التي آثروا، فقال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ ﴾. وكتاب ذلك: حفظه وإثباته والله أعلم، وأنه لا ينسى منه صغيراً ولا كبيرا، ولا قليلا ولا كثيرا، فأي كتاب أثبت من حفظ الله، والحفظة الكرام من ملائكته لأعمالهم وآثارهم كلها في

---

(١) يعني: مرفوعة رؤوسهم لا يستطيعون خفضها.

منقلباتهم، في ليلهم ونهارهم وجميع أيام حياتهم، قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾. والإمام فهو المتقن من الكتاب، الذي ليس في حفظه وبيانه شك ولا ارتياب، فهو بين مبين.

ثم ضرب لهم مثلا من تكذيب أصحاب القرية لأنبيائهم المبعوثين إليهم، إذ كانوا لهم في التكذيب مثلا، فقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾.

يعني سبحانه وهو أعلم وأحكم بـ ﴿ عَزَّزْنَا ﴾: شددنا ووكدنا، لأن الثلاثة في الإنذار أبلغ، وفي التأكيد عليهم للحجة أكبر، ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ثم أخبر سبحانه أنهم قالوا كما قالت قريش والعرب مكذبين لرسلهم: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. ثم أخبر سبحانه عن استشهاد رسله له في رسالتهم، إذ هو أعظم الشاهدين شهادة، وأصدق القائلين مقالة: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾. معزيا لنبيه عما كان يضيق به صدره من تكذيبهم له مع علمه بصدقه، وأنه مبعوث بالرسالة من قِبَل ربه، بإخباره عما لَقِيَتْ الأنبياء عليهم السلام من قبله، وأنهم كانوا يقولون مثل ما قال قومه لأنبيائهم.

ثم أخبر تعالى عن قول الكفرة لرسلهم، فيما كانوا يقولون به كذباً من التطير والتشاؤم بهم، إذ يقولون: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾. ليتعزى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذى قومه، بما نال المرسلين من قبله، فقال المرسلون

عليهم السلام لقومهم عند تطيرهم بهم: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، يعنون بطائرهم: ما قسمه الله لهم من أرزاقهم وأعمارهم، وما علموا أنه سيحل بهم من المحبوب والمكروه في ليلهم ونهارهم، إذ التطير في لسان العرب هو ما قسم لكل أمرئ وطار له من كل نصيب، في رزق أومكروه أو موت أو أمر محبوب، فأخبروهم أن ذلك معهم، يعنون: أنه مقسوم لهم لا يزيله مزيل عنهم، يريدون: إنما قسم الله لهم من الأعمال والأرزاق والآجال، وما يتصرفون فيه من ذلك ودوامه وإنقطاعه، قد قسمه الله لهم حتى علم ما يطير منه ويصير لواحدهم وجميعهم، فهو كيف ما كانوا محكوم به لهم، طائر ما أعطاهم الله منه إليهم فهو معهم.

ثم قال المرسلون عليهم السلام لهم: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾، يعنون: أَمِنْ أجل أن ذُكِّرتم، فأُمرتم بطاعة الله وأُنذرتم، كذبتم وأسرفتم، ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

ثم أخبر سبحانه عن الرجل المؤمن المصدق بالرسل والآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾. فدعا قومه إلى اتباع المرسلين، وأمرهم بطاعة رب العالمين، وأخبرهم أن أنبياءهم لم يأتوا يطلبون منهم فيما بلّغوهم جزاء ولا أجرا، وأنهم مهتدون.

ثم قال إيمانا بربه، وشكراً لنعمته: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، يعني: الذي اخترعني وخلقني: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾. فذكر رحمة الله عليه بما يجب عليهم من شكر الله في فطرته لهم، ورجوعهم عند الوفاة إليه.

ثم قال منبهاً ومذكراً، وعن عبادة آلهتهم وأصنامهم من دون الله زاجراً: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا

﴿ وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾. لأن الكافرين من المشركين كانوا يقولون أن آلهتهم التي من دون الله يعبدون، يشفعون لهم عند الله وينفعون، فذكّرهم الرجل المؤمن الذي جاء إليهم يسعى، أن آلهتهم التي عبدوا من دون الله لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً.

ثم قال: ﴿ إِنِّيٓ إِذًا ﴾، يقول: إن فعلت في كفر ربي فعلَكم، وقلت من الكذب قولكم، وعبدت الأصنام من دونه كما عبدتم، ﴿ لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾. والضلال الذي عنى المؤمن رحمةُ الله عليه، فهو الضلال عن الطريق المستقيم، والصراط: الذي هدي إليه، والمبين فهو: الظاهر البين العلين، ثم صدع بالإيمان بالله والتوحيد والإقرار لعبادته بين قومه، قائلا: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾. يقول الله سبحانه وتعالى مبينا، ولإيمانه ذاكراً وله بذلك مثيباً ومجازياً: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾.

ثم أخبر عن المؤمن صلى الله عليه إذ دخل الجنة، ورأى كريم الثواب والنعم وصار إليه، وعن قوله إذ يقول متمنياً لأن يكون مَن أكذبه من قومه، بما وهبه الله من الغفران والجنة عالماً، ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. وأي مكرَم أجل قدراً في الكرامة وأعظم تكريماً، ممن أدخله الله الجنة ومَنَّ عليه بثوابها ونعيمها خالداً فيها مقيماً، ويشبه - والله أعلم - أن يكون قوله إذ قال لهم هذه المقالة، وأعلَمَهم بما هم عليه وآباؤهم في عبادة من عبدوا من دون الله من الضلالة، فتلوه فأكرمه بالشهادة، إذ قال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾. قال عز وجل: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾، وعاجل الله قومه بالعقوبة في تكذيب الأنبياء المبعوثين إليهم، وتكذيب المؤمن الداعي إلى الإيمان لهم.

ثم قال سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مذكرا، ولنبيه عن عقاب أصحاب القرية مخبراً: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾. يخبر تبارك وتعالى على أن هلكة هذه القرية المكذبة، إنما كانت بصيحة أنزلها الله عليهم واحدة ليس لها ثانية، فخمدوا هامدين، وخروا موتى خامدين.

ثم أخبر - لا إله إلا هو - عن حسرة العباد، في يوم المرجع إليه والمعاد، بغفلتهم في حذر ما حذرهم الرسل في الدنيا من يوم بعثهم، وما يقع عليهم ويحل بهم في الآخرة، من التحسر والندم والحسرة، إذ رأوا صدق ما كانوا يكذبوا فيه الرسل من أمر الآخرة، فقال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾، يعني سبحانه بقوله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾: أن الحسرة على العباد واقفة، وقول الله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾، كلمة من وعيد الله منبية عن شدة الوعيد مفزعة، لأن العرب إذا أخبرت عن الأمر المفزِع المخوف العظيم، فلم يفهمه مَن تخبره عنه أو كذبت قالوا في التنبيه بأبلغ الوعظ والتكليم: يا حسرة عليك، ويا ندامة لك إذا ما حل بك ما كذبت به مما حذرناك فرأيته بالمعاينة، وإذا قالت العرب في لسانها، وما هو غاية الإفهام في لغتها وبيانها، للتي تصفه من الخير والشر ليفهم عظمه وكبره: يا كذا وكذا يدعون ما يُعظّمون صارخين باسمه، فذلك في لسانهم غاية الإفهام لعظَمه، فإذا ظنوا أن شرا من البلاء واقع، أو خيرا وسروراً يأتيهم لهم نافع، قالوا عند الخير، يا خير بني فلان، فذلك عندهم غاية الإفهام والبيان، في عظم ما يصفون من فضل الخير الصائر إليهم، أو قالوا: يا بؤس بني فلان وخزيهم، وذلك بعينه غاية الإفهام، لعظم الخزي والبلاء الواقع عليهم.

فأراد الله سبحانه أن يفهم خلقه وعباده إذ أسمعهم في كتابه ذكر حسرتهم يوم القيامة لها مسمياً، وإنما عنى الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰحَسْرَةً ﴾ - والله أعلم — أي: حسرة هي في العظم لما بلغ أهلها من التلهف على ما فاتهم من تصديق الأنبياء عليهم السلام، واستهزائهم في دار الدنيا للشقوة، إذا رأوا في الآخرة صدق ما كانوا يخبرونهم من خبرها، وتحقق قولهم، فحينئذ يتحسرون نـادمين، وتقـع الحسرة التي أخبر الله عنها يومئذ عليهم، فيبقون محسورين، حسرة على العباد كما قال لله ثَمَّ يا حسرة على العباد عليهم. ثَمَّ، يا حسرة حين عاينوا صدق وعيد الله في الآخرة فندموا وتحسروا حين لا يقالون، ولا تقبـل معـذرتهم فيعتذرون، فأي حسرة أكبر، وأي ندامة أفظع للقلوب وأنكر؟! من حسرة من لا يُقال عثرة، ولا تقبل منه معذرة، ومن هو خالد في أليم العذاب والعقوبة، ومن قد أيس من أن يقبل الله منه توبة، فيالها حسرة حـازت الحسـرات!! ولكفى بقول الله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ فيها بليغة من الصفات.

ثم قال جل ثناؤه، وخزيت بمعصيته أعداؤه، وفاز بخشيته أولياؤه، وهو يخـبر المنذرين من قوم النبي عليه السلام عمن أهلك بذنبه مـن القـرون: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ ﴾. فذكَّرهم سبحانه من هذه العبر مما لا ينكرونـه، إذ كان من أهلك وأمات من الهالكين غير راجعين، ودلهم على أنهم مملوكـون مربوبون، إذ كانوا مكرهين من الموت والهلاك دفعاً، ولا يملكون لأنفسـهم فيما يحبون من البقاء نفعا، خلقوا حين خلقوا وهم لا يشعرون ولا يعقلـون، وأنشئوا بتربية الله لهم ورزقه وهم غافلون، وفهموا إذ عقلوا من المضار والمنافع ما كانوا يجهلون، وأنعم عليهم بالنعم التي لا يحصون.

وكل هذا وما صُرفوا فيه منه فهم به مصرَّفون، وعلى المنعم الصانع لهم بذلك مدلولون، وله معروفون، وبالرق والعبودية موسومون موقوفون، فمن صُـنع منهم وخُلق فهو شهيد بلسانه أنه لنفسه غير صانع، ومن أُميت فهو مقر أنـه

للموت عن نفسه غير دافع، وأنه ليس بقادر على عودة إلى دنياه، ولا لاقيا من يحب فيها ولا راجعاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾. ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المنذَرين، ومن مات من القرون الماضين، ومن يموت من القرون المتأخرين، كلٌ جميع لديه محضرون.

و ﴿ لَمَّا ﴾ هاهنا تمام للبلاغة. وصلة في اللسان العربي للكلام، وإبلاغ في التنبيه من الله والإفهام، يعني سبحانه بإحضار البعث يوم القيامة لمن مات أولاً وآخراً من الكبار والصغار - ثم قال لا إله إلا هو - لما يحيى من موات الأرض وبعثة الموتى ذاكراً وعلى إحيائهم منبها، ومحتجا على العباد بأحيـاء الأرض الميتـة وممثلاً لذلك بنشرهم ومشبهاً: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾. وأي أعجوبة أعجب، أو مثل في أحيـاء الله الموتى أقرب؟! من إحياء الأرض بالمطر بعد مواتها، ويجد من خضرتها بعد يبس أشجارها، وارفتاتها وخمودها واقشعرارها، ثم تعود الأرض عند حياتها إلى ما كانت عليه قبل موتها من بهجتها واخضرارها، وخروج حبها وثمارها، ونبات مراعيها وأشجارها.

فمن أحمق أو أجهل أو أغفل أو أضل ممن جهل قدرة الله القدير المحمود، على أحياء الميت البالي المفقود؟! وهو يرى كيف يحيي الله الأرض بعـد المـوت والبيس والخمود!! والمحمود فهو الله الخالق الإنسان والمنشئ لبدنه بعـد إذ لم يكن، وكذلك فهو القادر على رد ما بلي بالموت من أعضاء البـدن، وهـو سبحانه الذي أخرج الحب منه ليأكله، وكلما نشأ من نعمة فيه كانت وهي له، وهو - كما قال لا إله إلا هو - الجاعـل في الأرض جنـات النخيـل والأعناب والمفجر فيها للعيون، وبه كان جميع ما أخرجت مـن الثمـار أو يكون، فهو الذي أنعم بذلك كله علينا ورزَقَه، وهيأه وأخرجه لنا وخلقـه، لولاه سبحانه لم نقدر عليه، ولم يكن لنا ولا لمحتال حيلة فيه.

ثم قال: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾، أي: ما طعمنا من ثماره وأكله ضروباً مختلفات، أنشأها لنا بكرمه وفضله، فواكه مفكهة كفانا سبحانه تدبيرها، وغذّاها بالأنهار والعيون التي فجرها وأجراها، حتى أكمل إصلاحها وملّكْناها، وهنأنا أكلها واغتذاها، وأجراها حتى إذ تم صلاحها، قال سبحانه: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾. وما عملت ذلك كما قال سبحانه أيدينا، بل هو الذي صنعه وفطره ومن به علينا، وما ذكر الله من هذا كله، فتقرير منه وتوقيف لخلقه على نعمه وفضله، وكل الأولين والآخرين جميعا والكافرون، فهم له سبحانه بصنع هذا كله مقرون، ولما عُرف منه وذُكر لا ينكرون.

ثم قال تعالى إلى الشكر داعياً، إذ لم يكن بالكفر لعباده راضيا: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾، وذَكَر ربنا وإلهنا عجيب ما خلق وصنع مُعرَّفا، في خلق الأزواج كلها للحكمة فيها واصفا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

فأي أعجوبة أعجب، أو عبرة في لطيف تدبيره أقرب، مما أنشأ وخلق من الإناث والذكران، في النبات جميعاً وكل الحيوان من الإنسان وغير الإنسان؟! فجعل ما خلق من ذكرانها وإناثها، سبباً لنمائها وصلاحها وانبثاثها.

ثم قال جل وتقدس: ﴿ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾. فأخبر أن الأزواج من الذكران والإناث في أشياء أُخرى، لم يطلعوا عليها و لم يحيطوا بها خبراً، كالنجوم التي لا يشك من يعلم بعض ما علم الله من خبرها، أن فيها ذكرانا وإناثا معروف ذلك من أمرها، وقد ذكرها تبارك وتعالى بذلك فيما نبأ به من أنبائها، فذكّر بعضها وأنّث بعضها في أسمائها، فقال في القمر: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾. فذكّره. وقال في الشمس: ﴿ وَٱلشَّمْسِ

وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس:١]، ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف:١٧]، والشمس والزهرةَ فأُنثيَان، والمشتري والقمر فذَكَرَان، وكذلك النجوم الثمانية وعشرون الأخرى، هي للشمس والقمر منازل ومجرى، فهي بغير شك ذكران وإناث، ليس بين أهل الألسنة من العرب والعجم في ذلك إختلاف، وكذلك فمن الحديد والحجارة،و جميع ما في المعادن المذكورة ذكران وإناث، وكل هذا فمما علمنا الله ودلنا عليه.

ومن الذكران والإناث كمال قال الله سبحانه ما لا نعلمه إذ لم يذكره و لم يهدنا إليه، إلا أن الله سبحانه قد أخبرنا عن أهل سماواته، ومَن عنده من مُكرَم ملائكته، أنهم ذكران لا إناث، إذ أنكر قول المشركين بالتأنيث لهم فيهم. ورد ضلالهم مكذبا لهم عليهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩]. وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النساء:١٧٢]. ولو كانوا إناثاً لقال: ولا الملائكة المقربات، ولكنه ليس فيهم ولا منهم أنثى، ولذلك قال: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾، دليل على أنهم ذكران مذكورون.

ثم قال - لا إله إلا هو - منبهاً على ما في الليل والنهار ومن آياته، وما فيهما على الخلق من عظيم نعمته: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾. فأي آية أكبر وأعظم عند من يعقل ويفهم من اختلاف الليل والنهار؟! وما يُقدر الله بهما وفيهما من عجائب التدبير والأقدار؟! بينما الناس في ضوء شمسهم ونهارهم، مقبلون ومدبرون في معايشهم وأمورهم، والشمس تجري في فلكها عالية من فوقهم، قد قدر الله بها وبجريها ما نعلمه لكثرة عبره

من تدبير مصالحهم ومرافقهم، إذ قطعت الفلك بأمر ربها وربهم، فتصوبت للغروب وأقبل الليل منسلخاً منه النهار، وانسلاخه منه - والله أعلم - انسلاخه عنه، وعنه ومنه مقامهما في هذا مقام واحد، فحينئذ يبدو سواد الليل طالعا، فكل ما انسلخ النهار مدبرا، ومضى بين يديه عنه مستأخراً، ظهر وازداد اسوداداً.

حتى إذا نحن بعد النور والبرهان مظلمون، وعن الإقبال والإدبار لما كنا نقبل له نهاراً أو عن أكثر ذلك ممسكون، وإلى الهدوء والراحة مائلون، وعن النشاط والقوة بكرى النوم زائكون، ومن أتعابنا ولغوب دوابنا في نهارنا مستريحون، وعن الأبصار كما كنا نبصر بها نهارا ممنوعون، لا نملك لشيء من هذا كله عن أنفسنا دفعا، ولا نستطيع رداً ولا منعا، دلالة من الله سبحانه على أنه هو المصرف لنا في جميع أحوالنا، وعلى عجزنا من الامتناع في تدبيره بنا، ونظراً منه تبارك وتعالى لنا، فنكون مسبوتين نياماً في ليلنا، حتى إذا بلغ الليل ما أراد سبحانه أن يبلغه من الميقات، في سراه ومسيره إلى غاية ما قدر الله عليه من الساعات، ظهر الفجر ساطعا، وأقبل النهار طالعا، فكلما انسلخ منه النهار مدبراً، ومضى بين يديه فتحرك حينئذ جميع الحيوان الذي هدأ فيه ليله وسكن لما يريدون من المعاشرة والشأن، قد حُموا من التعب واللغب براحة الأبدان، ففي هذا من مر الليل والنهار وغيره آيات عظام، وفضل من الله على خلقه وحسن نظر وإنعام.

ثم أخبر تقدس اسمه وجل أمره عما تولى للخلق من النعيم في جري الشمس، لما في جريها من صلاح الدنيا وحياة كل من في الأرض من ذي نفس، وإذ بالشمس وضوءها تبصر العيون، وينتشر الناس وينحون، ويذهبون ويعملون في صناعاتهم وأرفاقهم ما يعملون، وبجريها يكون كثير من صلاح أبدانهم، وعامة معاشهم وعمارة بلدانهم، وعلم عدد سنيهم وشهورهم، وما يصلح الله بها من زرعهم وثمارهم، وما يكثر عن أن نحصيه لصغرنا عن علمه.

وذكر سبحانه أن الشمس في عظمها، وما هي عليه من عجيب أمرها، في دورها وجريها، إنما تجري لمستقر لها، ومستقرها - والله أعلم - يوم القيامة، ففكر يا هذا وافهم!!!

ثم ذكر سبحانه النعمة على خلقه، بالقمر وما قدره له من المنازل إلى وقت محاقه، فذكر تعالى نعمة عظيمة من عظائم نعمه، لما قدره بالقمر من صلاح كثير من معايش الناس وتمامه، إذ بالقمر تُعرف الشهور والأيام، وهو في الليل سراج لجميع الدنيا، فيُبين في الظلمة للناظرين، ويضيء لمن سافر من المسافرين، وبه وبطلوعه وغروبه قدر الله مدد البحار وغزرها، وزاد بزيادته في أول الشهور مياه الأرض فأصلح أشجارها، وأربى بطلوعه خَضِرَها وثمارها، وما فيه من الآيات والعبر، فيكثر عن أن نحيط به علما، وحسبك ما فهَّمك الله منه في كتابه إن كنت فهماً.

وما ذكر الله من تقديره له منازل، فقد يراه كل ذي عين في كل ليلة مثالاً زائداً، النور في أوله عند نزوله منازله، وهي ثمانية وعشرون منزلة من النجوم، حتى إذا بلغ أربعة عشر منها نقص نوره في كل ليلة عند نزول كل منزلة، ممتحقاً حتى يعود بدقته في العيون دقيقا، كما قال سبحانه: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، والعرجون فهو: العود الذي يخرج من قلب النخلة حاملاً في شماريخه لثمره، وهو أعوج مقوس منحنياً، يشبه ما للقمر في آخر الشهر من الانحناء والدقة، وهو إذ كان قديما أدق منظرة.

ثم ذكر سبحانه أعجوبة أخرى، يدل بها على سرعة سير القمر إذا جرى، فقال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾.

والقمر فمن أسرع النجوم كلها جرياً، وهو يقطع الفلك في كل شهر من أوله إلى آخره دوراً، والشمس تجري في الفلك إلى أن تقطعه عاماً، وإن الليل غير سابق النهار، إذ هما جميعاً في الزيادة والنقصان على مثال ومقدار، فقال:﴿

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. وإنما يعني بسباحتهم في الفلك - والله أعلم - أنهم فيه يجرون ويدورون.

ثم قال - لا إله إلا هو - لبعض نعمه على الناس ذاكرا، لحملهم في الفلك ولهم على شكرهم فيها منبها وعنها مخبرا، ولعجيب آياته فيهم معرفا، لذلك تعالى وجل واصفا: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾. وكذلك فهو الله الذي حمل البشر في الفلك والبحر، وعلى مثل ذلك من الدواب الحاملة لهم في البر.

وقد قيل في الخبر: إن الذي مُثِّل بالفلك هي الإبل، وقد تسميها العرب سفن البر، ولشبهها بها ما قرنها الله عز وجل بالسفن في ذكرها، فقال: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٢]. فهذا فيما ذكر الله من قوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. وما نرى - والله أعلم - أن الله أراد بقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. إلا ما حمل وأَقَلَّ من الدواب كلها الإبل وغير الإبل، غير أن للآبال مالها في الحملان من الفضل.

ثم قال سبحانه: ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾. فهو المملوء المثقل، وهو الله المنعم المفضل الحامل لذرياتهم، والذريات - والله أعلم - فهي الذرء والمذروء المكثَر من جماعتهم، قال الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٩]. يعني يذرؤكم: كثركم ونشركم، وكذلك إذا قيل: ذرية، فإنما يراد جماعة مكثَرة مَذْرية، والواحد من الجماعة المكثرة المذرية ذرية، والثنتان ذريتان، والثلاث ذريات، فكان هذا - والله أعلم - دليلا على

لمن يعقل فيفهم على أن الذريات هي الجماعات منكم المذريات المكثّـرات، لأنه لو كان مخرجها في الذّكر إنما يراد بها الذراري دون الآباء، لكننـا نـرى كثيراً ممن يركب السفن إنما هم الأكابر لا الذراري الأصاغر الضعفاء.

ولكن الذريات وإن تأول متأول، أو قال قائل: إن الذريات الأطفـال، وإن حملهم في الفلك دعة وسكون ومرفق على أبدانهم لضعفهم وصغرهم، وقلـة تحريك الفلك لهم.

قيل له: هذا تأويل يجوز في المعقول، وليس في التأويل بأصل ثابت ولا يزول، لأنه ربما كان من زعازع البحر في كثرة الأمواج، وماله عند عصف الريح من شدة الحرة والارتجاج، أشد على راكب الفلك خطراً، وأهول أمـرا، مـن ركوب أصعب صعاب الدواب، التي تجمح بركبانها غاية الجمـاح، حـتى لا يبقى راكبها لشدة تكفتها وقلقها، عند زعازع الأمواج لها، ولكن التفسـير الأول فيما ذكر الله للذريات من الحمل في الفلك أشـبه - والحمـد لله - وأوجه.

ثم قال عند ذكر الفلك المشحون، فدل بقولـه:﴿ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ علـى التذكير بالنعمة في حمل ما يحملون من معايشهم وأمتعاتهم وتجاراتهم.

والفلك عند شحنها أعظم ما يكون خطراً، وأخوف ما يكون أهلها للغـرق عليها خوفاً، إذا كانت الشاحن أقرب إلى العطب لثقلها ورسخوها في الماء.

ثم قال سبحانه عند هذا الذكر بعينه بما تولى من سلامتهم مذكراً: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾، يعني: لا مغيث في لجـج البحـار وأمواجهـا، يصرخهم ويغيثهم عند غرقهم لهيجان موجها وارتجاجها.

يقول الله الرؤوف الرحيم، بخلقه الكريم: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾، يعني: أن سلامتهم لم تكن وإن كانت الفلك قد وصلوها، وأتقنـوا مـن بنائها وجعلوها كما جعلوها، إلا بحملان من الذي ذكر، والحملان هاهنـا

المذكور ليس هو إقلال [١] عيدان الفلك وألواحها وحده، ولكنه تسليم الله وحمله بالسلامة في هول البحار عبيده، إذا عظم ما رأى ونظر من عظيم الفلك والسفن الكبار، مع عظيم البحر وكبره وعتو أمواجه كالذباب الصغير الطائر الذي يمر طائرا حقيرا في سعة الصحاري والقفار، فبرحمة الله القدوس جل وتعالى نجوا، وبحملانه لهم بالخروج من البحر ظفروا، وإلى حين ما موقوت من آجالهم ما أمتنعوا بالحياة واخرجوا، لقول الله سبحانه بعد ذكرها ما ذكّر به العباد من هذه النعم، وهو يخوفهم - لا إله إلا هو - العقوبة فيما خلْفهم من الذنوب، ومحذراً لما بين أيديهم إن لم يتقوه من الخطايا والحوب: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، يعني سبحانه: فلا تعاقبون إذا تبتم واتقيتم إذا جزتم من ماضي الذنوب فخلفتم وراءكم إذا تبتم، و ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾، فالاتقاء للذنوب فيما يستقبلون التي ترديهم، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ فهو ما مضى في الخطايا وفات منهم، والتوبة التي هي الاتقاء فهي التي تتقى بها الخطايا فيما خلفهم وبين أيديهم، فلما انتهى الخبر إلى قوله سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. ولم يذكر عنهم جواباً ولا طاعة، علم أنه إذ لم يذكرهم بالرضى ساخطٌ عليهم، لإغفالهم اتقاء ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا من مفهوم الكلام عند العرب وأبلغ الاختصار، والمعقول بالمعنى الظاهر منه باطن الإضمار.

ثم ذكر سبحانه إعراضهم عن الآيات، التي نزلها على نبيه وما يريهم منها في آفاق السماوات، فقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾. وذكر - لا إله إلا هو - بخلهم عن الإنفاق مما رزقهم،

---

(١) الإقلال: الحمل.

فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فأجابوا فيما دعاهم الله إليه من إطعام الفقير والإنفاق، جواب اللئام البخلاء الجاهلين مثلهم، واحتجوا على النبي ومن دعاهم إلى ذلك من المؤمنين بما لا حجة لهم فيه، فقالوا: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾. وجهلوا أن ما دعاهم الله إلى إطعام الفقراء محبة لهم بذلك واختبار وبلوى، ليجزيهم الله في إطعامهم والإنفاق في ذلك مما رزقهم الجزاء الأوفى، الذي هو أطيب وأعظم مما أنفقوا وأزكى وأكبر [1]، وقد علم النبي عليه السلام والمؤمنون، إذ هم لهم إلى الإنفاق داعون، أن الله أقدر القادرين، على إطعام الفقراء المعسرين، فذكر الله ما كان من ترك الإنفاق من جواب الكافرين، ليكون المؤمنون لمثل معصيتهم فيما أقروا به حذرين.

ثم قال تبارك وتعالى مخبراً عما كان الكافرون عليه من التكذيب بيوم القيامة ووعدها، بإنكار الكفرة للبعث وجحدها، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾. يقول الله سبحانه وهو يخبر أن الصيحة تأتيهم وهم بالغفلة والتكذيب عنها من الساهين: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾. يعني تبارك وتعالى وهو - أعلم وأحكم - أنها تأتيهم بغتة وهم في غفلة يتخاصمون في معايشهم وأمورهم فلا يدرون، حتى تهجم الصيحة عليهم وهم في غفلة مغترون: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾. والتوصية هاهنا: الوصية، عندما يعاينون من التلف

(١) في المخطوط: أزكى وأكبر. ولعل الصواب كما أثبت.

والمنية، ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾، لأن ذلك يهجم على أكثرهم وهم مقبلون، ومدبرون في أسواقهم ومعايشهم غافلون.

ثم أخبر تبارك وتعالى عما يكون بعد الصيحة، عند النشور في الصُّور من النفخة، والصور هاهنا - والله أعلم - جماع الصَّوَر التي ينفخ فيها الأرواح، فتحيى للبعثة والنشر، فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾. وحينئذ يخرجون من أجداثهم وهي القبور ينسلون، والنسلان في المشي، السرعة التي هي دون العدو، وقال جل وتعالى عن الكفار مخبراً بغفلتهم، عن طول ما مر من الدهور بهم وهم في قبورهم، قبل حياتهم ونشرهم، ونشأتهم عند قيامهم لموتهم وحشرهم، لما كان من سرعة بعثهم حتى توهموا إذ لم يحيوا بتجديد الله لما بلي من رسمهم، فيعلموا أنهم كانوا في رقدة، إذ لم يدروا بطول ما مر بهم من الأمد والمدة، ثم ذكروا أنهم كانوا ميستين، فقالوا عند الذكر فزعين مرتاعين، واتصل بفكرهم إذ أيقنوا ببعثهم ونشرهم جميع ما وعدوا به من الوعيد، فنزل بهم عند الفكر في ذلك هائل الكرب الشديد الوبيل، فدعوا من الويل بما ذكره الله في التنزيل، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾. يقول الله سبحانه مخبراً عما يكون من سرعة إحضارهم ذاكراً: ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾.

ثم أخبر سبحانه بكرمه وفضله، من حكمه يومئذ بين عباده بعدله، أنه لا يظلم في ذلك اليوم نفسا، ولا يجزي كل عامل إلا بما كان من عمله، فقال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

ثم أخبر - لا إله إلا هو - عن أصحاب الجنة وما يَمنُّ به عليهم في ذلك اليوم من المِنَّة: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾. مُبكِّتاً ومحسِّراً

للعصاة الكفرة إذ هم لنعمه كافرون بما أعطى الأبرار، من النعيم والنجاة من النار: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾. فخبّر سبحانه عن شغلهم الذي شغلهم، والشغل المذكور فيما ذكر الله من هذه الصفة، كلمة تقولها العرب عند الخلوة من الرجل لجماع زوجته معروفة، فأخبر تبارك وتعالى عن إقبال أهل الجنة آمنين على التي لا كنساء الدنيا بهن وبخلوتهن مشتغلين، عاكفين عليهن في الأرائك متكئون، وما ذكر الله سبحانه هاهنا من الظلال، فهي فيما نرى: القباب، ونحوها من الحجاب، إذ فضل هذه الضلال المذكورة، على ظلال الدنيا على قدر فضل الآخرة، لأن فضل نعيم الجنة في الكمال، فضل فائت لنعيم الدنيا في كل حال، لا يخطر اليوم لعظمه وكبره بالبال، كيف كُنهُ مبلغه، إلا أنه قد يعلم مَن فَهِم صغر الدنيا عند الله ونقصها، أن الله سبحانه لم يُفضل الجنة حين ذكرها معظمة لقدرها، وواصفا لكبر أمرها، إلا وهي التي لا يلحق شيء من نعيم الدنيا بها.

ثم أخبر سبحانه عما لأصحاب الجنة فيها من الفواكة المفكهة المعجبة، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾. وتأويل ﴿مَّا يَدَّعُونَ ﴾ هاهنا - والله أعلم - هو ما يدعون به ويتمنون.

ثم ذكر جل ثناؤه ما لأهل الجنة من السلامة، إذ هي عليهم من أعظم النعم، عند تسليم الله لهم مما يعاينون يوم القيامة من أهوال النقم، ولعظم السلامة يومئذ وقدرها، ما ذكر الله أنها من قوله في الجنة عند ذكرها، فقال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾. فجعل تحيته لهم بالسلامة التي هي السلام من أعظم التكريم، لأن السلام في نفسه إذا قيل في الدنيا والآخرة، فإنما معناه السلامة بغير ما شك ولا مرية، سواء قيل: السلام عليكم أو قيل: السلامة.

ثم أخبر جل وتقدس عما يقال للمجرمين في ذلك اليوم من الأمر لهم بالامتياز، الذي تأويله - والعلم عند الله - التنحي عن المؤمنين بالعزلة والانحياز، فقال سبحانه: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

ثم ذكر قوله - تعالى من قائل وتقدس يوم القيامة - لبني آدم وهو يوقفهم على ترك ما أمر به إليهم، وما نهاهم عنه في الدنيا من عبادة الشيطان التي ترديهم: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾. والمبين من الأعداء، الذي: قد أظهر العداوة غاية الإظهار والإبداء.

ثم ذكّرهم - لا إله إلا هو - به من عبادته وأمرهم، فقال: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾، والمستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج له القويم.

ثم بكّتهم جل وتقدس وأنبأهم، بما أضل الشيطان من القرون الكثيرة منهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. وأهل اللسان فلا يمترون أن الجبِلّ: القرون، وفي قوله: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾، تفهيم منه لهم أن العقول من حججه عليهم، وأنهم إذا عطلوا عقولهم، غير معذورين باتباع عدوهم الذي يغويهم.

ثم قال سبحانه لهم بعد التقرير والتوقيف والتبكيت بذنوبهم والتعريف، ما ذكر من إيجاب المعاقبة عليهم بالنار من المقالة الكبرى، التي زال بها عنهم عند معاينة جهنم الشك والتكذيب والامتراء، ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾. فحينئذ وقعت عليهم الحسرة، وصاروا إلى غاية العقوبة التي وُعِدوا بها في الآخرة، إذا صلوا نار جهنم، وندموا وتحسروا ولات حين مندم.

ثم أخبر جل ثناؤه عما يريهم يومئذ من آياته العظام، باستشهاد أعضائهم عليهم فيما ارتكبوا من المعاصي والخطايا والآثام، وإصمات ألسنتهم من الشهادة والكلام، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥﴾. ليروا من آياته سبحانه وعدله وحكمه، على كل ظالم إن سخط عليه في ظلمه، آية عظيمة من آياته، إذ شهدت جوارح الخاطئ منهم عليه بخطائه، فأراهم آية بينة من الآيات لا شك فيها، واستشهد من أعضاء أبدانهم شهوداً عليهم تُعلمهم لا تهمة عندهم عليها، ولا ينكر مَن عرف قدرة الله وفضلها، إذ هو الذي أنطق اللسان أن ينطق ما شاء من الأعضاء كلها، لأن اللسان إنما هو عضو من البدن، لو لا أنه أنطقه لم ينطق و لم يُبِن.

وقد يمكن - والله أعلم - أن تكون شهادة الأعضاء عليهم، توقيفهم على كل خطيئة عملتها جوارحهم [١]، مما مشوا إليه بأرجلهم وبسطوا فيه بأيديهم [٢]، فلا ينكرون عند توقيفهم على خطاياهم، ما له من النعم والامتنان عليهم [٣].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾، يريد تعالى بالحياة: حياة العقل والنفس في قبولها للهدى وتذكرها، لأن من كان لا يتذكر بالقرآن فهو كالميت الذي لا حياة فيه، لا يبصر نور القرآن المضيء كضوء الشمس، لولا تعامي الكافر عما أهدي به إليه، ومعنى قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾. أي: يقع الوعيد ويجب العذاب على الكافرين.

---

(١) في المخطوط: الجوارح. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوط: بأبدانهم. مصحفة.

(٣) في المخطوط: عليه. ولعل الصواب ما أثبت.

ثم رجعت القصة والخبر إلى مثل ما ذكر الله في أول السورة، ونبه عليه من شكر النعم، فأخبر سبحانه عن تمكينه لهم الأنعام إذ جعلهم لها مالكين، يفعلون فيها ما يشاءون.

فقال - لا إله إلا هو - منبها ومذكراً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾. تفهيما منه سبحانه لعظيم النعمة في الأنعام، والأنعام فهي ما جعل الله تبارك وتعالى وخلق من الآبال، وهي من نعم الله على الناس العظام الكبار، فملّكهم إياها، وهو الذي ابتدعها وأنشاها.

والأيدي هنا القدرة، وما لله على صنع ما أراد من القوة، [تقول العرب:] أنا فعلت بك ما فعلت بيدي من الخير، ولعل إحسانه إليه إنما كان بالأمر واللسان، وكيف يتوهم من عقل ما لله من العظمة والجلال، أنما ذكره الله من اليد فيما فعل وخلق إنما هي، يدٌ لا كالأيدي، والله لا شريك له يجل ويعز ويتعالى عن الأعضاء والأوصال؟! وهو يقول في كتابه المحكم المبين، ما يدل في هذا المعنى على إكذاب مَن توهم في اليد تشبيها من المشبهين، إذ يخبر عز وجل كيف يخلق ما أراد خلقه بقدرته، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]. فهو سبحانه يخبر أن جميع ما أراد خلقه بلا معاناة، يدخل فيه بتكلف يتكلفه، وإنما يكون ما أراد صنعه بكلمة أسرع الكلام، في المعقول والأفهام، كسرعة لمح الطرف من الأبصار، وهو ﴿كُن﴾.

فسبحان من جل وتقدس وعلا عن أن يكون له شبه أو يضرب له مثل به مثلاً، أو يتوهم محتاجا لعظمته إلى أن يزاول بيد أو بنان عملا!! جل وتقدس عن الأعضاء الموصلة من اليد والبنان!! وعن شبه من لا يعقل جل جلاله وعظمته له بالإنسان.

ثم أخبر سبحانه عن تمليكه لهم الأنعام، إذ جعلهم لها مالكين، يفعلون فيها ما يشاءون، وذكر تذليله لها مع عظم خلقها، وشدة أسرها وأوصالها، وغلبتها لما هو أعظم قوة ضعافا من الإنسان، فأمن غضبها وصيالها، وذللها سبحانه مع هذا كله من أمرها للإنسان، فبلغت في الذل والذلة والإقبال والتصرف لضعف الصبيان، يقول الله سبحانه عند ذكر تذليله لها: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾. والركوب للإبل فهي: الراحلة، فمنها لعمري كما قال الله سبحانه: ﴿ رَكُوبُهُمْ ﴾ التي يركبون، وبها وبركوبها على أسفارها البعيدة يقوون، لأنها في الأسفار من أفضل ما به يتبلغون، وغيرها من الدواب وإن رُكب لا يقوى على ثقال الأحمال، ولا يصبر في السفر على طول المدة من انقلاب الأيام والليالي على مثل ما يطيقه ركوب الآبال، والرَّكُوب في عربي اللسان من الإبل، فهو ما ذل وركب وحمل، وكذلك الحلوب التي تسميها العرب، فهي المحلوبة التي تحلب.

ثم قال الله الجواد الكريم، الذي لا يبلغ جوده وكرمه ورحمته جواد ولا رحيم: ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾. فهي لعمري عند العرب من أفضل ما يأكلون أطيبه لحماً، وأجزاها في النحر والجزاء أعظمها عظما.

ثم ذكر مالهم فيها من المنافع الكثيرة التي يعملونها ويرفقون بها من الجلود والوبر، فذكر ما فيه منه من ذلك من منة ومعتبر.

وذكر سبحانه عظيم النعمة في لبنها السائغ المشروب، فلا يذكر تعالى أبداً ولا يُعجِّب إلا بعجيب، فأي لبن الإبل في فضله وصحته، وجودة غذاءه في الأبدان ومنفعته، وما لشاربه بشربه من عجيب الزيادة في قوته.

تقول العرب قولاً واحداً، تجمع عليه من بلدانها مع أنه لم يدخل الأجواف شراب قط أصح صحة، ولا أنفع منفعة، ولا أبين في الأبدان أثرا، أطيب لريح

الأجساد طيبا، ولا أنقى لكل آفة وداء، ولا أصفى للألوان صفاء، وألطف للبطون مع شدة العصب البدن لطفاً، من ألبان الإبل.

ويقال إنما في عرب البادية من صفاء الألوان، ولين الأسنان، وقوة البطش في الأبدان، إنما هو لما يشربون من ألبان الإبل.

فمتى ذكر الله سبحانه المنة بنعمة بينة لها ما من على الناس من النعم، فليفهم مَن عَقَل وفكر وتفهم، أن في المذكور، خبراً عجيبا من الأمور، وقد أجمع جميع الأطباء، أن ألبان الإبل لكبار من الأسقام أصح الدواء، وهو بعدُ من أطيب ما يشرب من اللبن وأنفعه في الغذاء.

وقد يقول من يشرب المسكر المحرم من مُجّان العرب وشطارها: إن لبن الإبل يجدونه أصح إذا شربوه من المسكر، لما يجدون من القوة، ويصفي من الألوان، ويلين من أبشارها.

قال الله سبحانه وتعالى منبها على الشكر لفضل ما جعل من الأنعام، من النعم الكبار العظام: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾. ثم رجع القصص والخبر إلى ما في أول السورة، من تنبيه المنذرين الذين ذكر الله سبحانه أنه بعث إليهم رسله للتذكير والنذارة، فذكر ضلالهم في أصنامهم، وما يقولون به كذباً ويموهونه باطلاً في عبادهم من النصرة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾. ثم أخبر الرحمن الرحيم أن آلهتهم لا يستطيعون نصرهم، وأنهم جند لهم محضرون.

ثم عزا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عما يجد من الحزن بقولهم، والغم الذي يعزيه رحمة منه صلى الله عليه وآله وسلم لعشيرته من النار، وحزنا لما يكذبونه فيما أنذرهم وأخبرهم من صادق الأخبار، فقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ثم قال سبحانه على الكافرين محتجاً بالحجة والبرهان، ومُوقفا ومُنبِّها لغفلة هذا الإنسان، فيما استعظم من التجديد بعد البلى لميت الأبدان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾؟! أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة مذرة، خارجة من قذاة النجاسة، فإذا هو خصيم مبين، فذكر الإنسان بما لا يُنكر ولا يقدر على جحده، بل هو مقر من خلقه من نطفة.

والنطفة في اللسان، القطرة الصغيرة القليلة عند العرب من معروف البيان، وقد يدور ذلك بينهم كثيراً، يقول القائل إذا ظمئ وعطش وقل الماء في السفر إذا طلب ماء يسقاه من رفيق أو غير رفيق، وكان الماء عزيزا غير موجود: يا هذا أسقني نطفة قليلة، يريد: قطرة من الماء حقيرة غير كثيرة، وكذلك تقول العرب في وصف ما في السقاء والوعاء، إذا ذهب ماء القربة أو الوعاء، فلم يبق منه إلا الصبابة القليلة: ما بقي في القربة أو غيرها إلا نطفة، يريدون: قطرة في التقليل قليلة.

فذكّر الله الإنسان، بعجب عجيب من الشأن، في قدرته على خلقه من أقل القليل، من النطفة والماء المهين الذليل، مبتدئاً له ومخترعاً، والنطفة فهي النطفة في بنيتها، وضعفها ووهنها ومهانتها، لا روح فيها ولا حياة، ولا أعضاء ولا صورة مهياة، ثم أخرج منها مع ضعفها وقلتها بدناً وأعضاء عجيبة في تأليفها وترصيفها فيها، مع ما فيها من الحواس الخمس، من البصر والسمع والشم والمذاقة واللمس، وما هو أعجب من ذلك كله، مما لا تحس هذه الحواس إلا به، من النفس والعقل، وما صارت تلك النفس إليه من العقل، فبينما هي نطفة لا تعقل إذ صارت إنساناً خصيما، يقبل ويدبر، ويسمع ويبصر، ويشم ويذوق، ويلمس وينطق، ويخاصم مبيناً في خصومته.

فأي آية أدل لهذا الإنسان على قوة الله وقدرته؟! على إحيائه وتجديد رميم عظامه بعد موته؟! [و] ما أراده من عجيب الآئه والدلالة على قدرته، في

خلقه من النطفة وما قدرها وفيها من صورته، فالله الذي خلقه بعد إذ لم يكن، هو القادر على تجديده ما بلي له بعد الموت من البدن، لأن عمارة الخراب من الأشياء، وتجديد ما بقي لها من البقايا، أقل من المعقول المعروف وأهون من الاختراع لها والابتداء.

ثم قال - لا إله إلا هو - للذكر الجاهل، التائه في ضلاله الغافل، الذي لم يفهم قدرة ربه القدير ولم يعقل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾. وهذا مثله الذي ضرب، وسُمي: مثلا لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكاره قدرة الله على إحياء الموتى.

ثم قال: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾، أي: ترك خلقه أن يستدل به، أو شبهاً على الاعتبار به، أي: مثَّل لنا مثلاً ونسي ابتداء خلقه، وما هو حجة عليه، وهو أن الله ابتدأه واخترعه من نطفة، ولم يكن شيئا حتى صوَّره وهيَّاه، وقدَّره كما قدَّر سواه، وإن إعادته بعد البلاء، أقل من الإنشاء والابتداء، وذلك حين قال الإنسان الضال الذميم: ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؟! استبعاد أن يعود خلقا جديدا.

فأمر الله تعالى نبيه أن يجيبه بما فيه دليل لأولي الألباب، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ في الدنيا، أي: مَن قدر على إنشائها أول مرة من غير شيء، فهو قادر على إعادته في النشأة الثانية من شيء.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾، يريد: أن الله عز وجل عالم من وجود الخلق بما لا يعلمه إلا هو، فهو عالم كيف يخلق مبتدئا إذا خلق، وكيف يخلق البدن بعد بلائه خلقاً ثانيا إذا بلي وتمزق، كل هذا من الخلق وغيره من وجوه خلق المخلوقات، التي خلقها بين الأرض والسماوات، فهو فيه بكل خلق عليم، هو عند من كان ذا فهم وعقل يفكر في قدرته قادر على إحياء العظام وهي رميم، والرميم اسم لما بلي من العظام، غير صفة كالرمة

والرفات، فلذلك لم يؤنث حيث أخبر به عن المؤنث، فلا يقال: لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث، ولا هو فعيل بمعنى: فاعل أو مفعول، وفيها دليل على أن الحياة تحل العظام.

ثم زاد تبارك وتعالى مَن نظر واعتبر آية أخرى، وهي من آياته ودلائل قدرته الكبرى، ومكذبة لمن كان بجهله لإحياء الموتى منكرا، فقال - لا إله إلا هو - مذكرا ومعبراً: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾. والشجر الأخضر فهو الرطب المخضر، إذا قدحت بعيدانه النار مع خضرته وندوته، فجعل الله النار المحرقة في عيدانه آية مسكته غير محرقة، لما هي فيه من العيدان، لا يراها رآء ببصر ولا عيان، حتى يخرجها الله بالقدح من العود للإنسان.

فأي أعجوبة أعجب، أو آية في التنبيه على قدرته أقرب، من هذه الآية إذ يخرج الله النار الحارة المحرقة، من عيدان الشجر الباردة الخضراء المورقة؟!

ويقال: إنها - والله أعلم - شجرة المرخ، وهي شجرة من أسرع الشجر عند القدح للنار إبرآء، وهي أبداً في القحط والخصب خضراء، وهذه آية عظيمة من عظام الآيات بغير ما شك ولا امتراء، يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾. أي: من الشجر الأخضر.

ثم ذكّرهم بما هو أعظم في الحجة على قدرته عظما، وأفهمَهم لمن ينتبه على ترك الغفلة فهما، في خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾. أي: مثلهم في الصغر والقلة بالإضافة إلى السماوات والأرض، أو يعيدهم لأن المعاد مثل المبتدأ وليس به، قال الله الصادق الكريم: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾.

فذكّرهم بالعظيم الجليل من قدرته، من خلق أرضه وسماواته، ونبههم على أنه

إذا قدر على أن يخلق العظيم الكثير من ذلك، أو أقل منه في قدرته إحياء رميم عظام كلِ ميت هالك، لأن من خلق جميع بني آدم من أول الدنيا إلى آخرها، أقل من خلق الأرض كلها فضلا عن السماوات التي هي أضعافا من الأرض وعظمها وكبرها.

ثم مثّل تعالى سرعة فعله من خلقه وصنعه، بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾. خبرٌ من الله جل جلاله، وإفهام لعباده، وتبيين أنه لا يعاني من آذى خلقه من الخلق والصنع والأمور، بمعاناة كلفة ولا مزاولة كفّ ولا بنان، إذ هو متعال عن أن يوصف بأعضاء وغير شبيه بالإنسان، وأن أمره إذا أراد خلقاً أو شيئا، أن يقول له في أسرع من لمح البصر كن فيتمثل كائنا، يقول الله سبحانه مترّهاً: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. فسبحان - هاهنا وفي جميع القرآن - فإنما معناها: بُعدان، يريد الله سبحانه أنه: بعيدٌ عما قال به الجاهلون، وأنكره من قدرته على إحياء الموتى الكفرة الذي لا يعقلون.

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. فمعناه - والله أعلم - الذي في ملكه وقدرته ملكوت كل شيء، واليد عند العرب وأهل الفصاحة منهم، فهي القدرة لا اختلاف في ذلك بينهم، ولذلك ما يقول الله عز وجل في تتريله، عند الصداق في النكاح وذكرِه، ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

فعقدة النكاح ليست بعقدة حبل معقودة، ولا هي في يده وقبضته ترى كالعقد معاينة موجودة، وإنما هي في يده بملكه لها، وولايته إياها، فكذلك الله فَبيَدِه ملكوت كل شيء، إذ يقول الله المالك للأشياء كلها، الذي خلقها

وابتدأها، والملكوت في اللسان، فهو: الملك كله جميعاً في البيان، وكذلك الجبروت فهو التجبر والتعظم، الذي لا يجوز لغير الله وهو كله لله معا.

وقوله سبحانه وجل وتقدس وعظم عن أن يضرب في شيء مثلا: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾. فأصدق القول، إذ الخلق جميعا إليه مرجعهم عند الموت والوفاة وحين يبعثون.